الجهاد في سبيل الله

كتاب

الجهاد في سبيل الله

للإمام ابن القيم

طبعة منقحة ومحققة

الناشر

مركز الكتاب للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مركز الكتاب للنشر

مصر الجديدة : ٢١ ش الخليفة المأمون روكسي ت ٦٦١٠١٧٩

مدينة نصر : ٣ ش الوادي ـــ الحي السابع ت ٢٦٢٦٨٤١

كلمة الناشر

يتناول ابن القيم فى هذا المؤلف ركنًا أساسيًّا من أركان الإسلام الحنيف وهو الجهاد فى سبيل الله ، فنراه يزخر فى بحر علمه فى هذا الباب من جميع جوانبه بالأدلة النقلية من قرآن وسنّة ، وأقوال الصحابة وأفعالهم ، بل وأقوال الفقهاء من بعدهم ، فهو بحق ـــ برغم صغره ـــ موسوعة فى هذا الباب ـــ باب الجهاد فى سبيل الله .

مركز الكتاب للنشر

المقـــــدمة

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

وبـــه نســـتعين

الصلاة والسلام على أفضل خلق الله الصادق الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وبعد :

فابن القيم هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزّرعي ثم الدمشقى الفقيه الأصولي المفسر النحوي العارف شمس الدين أبو عبد الله .

ولد سنة ٦٩١ هـ ، وسمع من الشهاب النابلسى العابر والقاضي تقي الدين سليمان ، وفاطمة بنت جوهر ، وعيسى المطعم ، وأبي بكر بن عبد الدايم وجماعة . وتفقه في المذهب وبرع وأفتى ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه ، تفنن في علوم الإسلام ، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه وبأصول الدين ، وإليه فيهما المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه ، لايلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله وبالعربية ، وله فيها اليد الطولى ، وبعلم الكلام والنحو وغير ذلك ، وكان عالما بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم . له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى .

قال الذهبي في المختصر : عنُي بالحديث ومتونه ورجاله وكان يشتغل في الفقه ويجيد تقريره وتدريسه ، وفي الأصلين ، وقد حبس مدة لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل وتصدى للاشتغال وإقراء العلم ونشره ، قال ابن رجب(*) : وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكسار له والانطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك ولارأيت أوسع منه علمًا ولاأعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه وليس هو المعصوم ، ولكن لم أرَ في معناه مثله ، وقد

* انظر ذيل طبقات الحنابلة ٢ /٤٤٧ ـــ ٤٥٢ .

امتحن وأوذي مرات وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ .

وكان مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن وبالتدبر والتفكر ، ففتح الله عليه من ذلك خيراً كثيراً ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والدخول في غوامضهم ، وتصانيفه ممتلئة بذلك ، وحج مرات كثيرة وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة ، وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه ، ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة ، وسمعت عليه (قصيدته النونية الطويلة) ، في السنة ، وأشياء من تصانيفه وغيرها .

وأخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه وإلى أن مات وانتفعوا به ، وكان الفضلاء يعظمونه ويتتلمذون له كابن عبد الهادي وغيره .

وقال القاضي برهان الدين الزرعي عنه : ماتحت أديم السماء أوسع علماً منه ، ودرس بالصدرية ، وأمّ بالجوزية مدة طويلة وكتب بخطه مالايوصف كثرة .

وصنف تصانيف كثيرة جدًّا في أنواع العلم ، وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه ، واقتناء الكتب ، واقتنى من الكتب مالم يحصل لغيره . فمن تصانيفه كتاب تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته ، والكلام على مافيه من الأحاديث المعلولة (مجلد) ، كتاب سفر الهجرتين وباب السعادتين (مجلد ضخم) كتاب مدارك السالكين وكتاب عقد محكم الأحباء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء (مجلد ضخم) ، كتاب شرح أسماء الكتاب العزيز (مجلد) ، كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد (أربع مجلدات) ، كتاب جلاء الأفهام في ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام ، وبيان أحاديثها وعللها (مجلد) ، كتاب بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل (مجلد) ، كتاب « نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول (مجلد) كتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين (ثلاث مجلدات) ، كتاب بدائع الفوائد (مجلدان) الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية ، وكتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، كتاب حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح وهو كتاب صفة الجنة (مجلد) ، كتاب نزهة

المشتاقين وروضة المحبين (مجلد) ، كتاب الداء والدواء (مجلد) ، كتاب مفتاح دار السعادة (مجلد ضخم) ، كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية ، كتاب مصائد الشيطان (مجلد) ، كتاب الطُرق الحكمية (مجلد) ، رفع اليدين في الصلاة (مجلد) ، كتاب نكاح المحرم (مجلد) ، تفضيل مكة على المدينة (مجلد) ، فضل العلماء (مجلد) ، عدة الصابرين (مجلد) ، كتاب الكبائر (مجلد) ، حكم تارك الصلاة (مجلد) ، كتاب نور المؤمن وحياته (مجلد) ، كتاب حكم إغمام هلال رمضان ، وكتاب بطلان الكيمياء من أربعين وجها (مجلد) ، الكلم الطيب والعمل الصالح (مجلد لطيف) ، الفتح القدسي ، التحفة المكية ، كتاب أمثال القرآن ، شرح الأسماء الحسنى وأيمان القرآن والمسائل الطرابلسية (ثلاث مجلدات) ، الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم (مجلدان) ، الطاعون (مجلد لطيف) .

مات في ليلة الخميس من رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وصُلي عليه من الغد بالجامع عقيب الظهر ، ودفن بمقبرة الباب الصغير وشيعه خلق كثير .

وكتاب الجهاد في سبيل الله من مؤلفات ابن القيم الهامة ، التي فسرت لنا ماورد من آيات وأحاديث بشرح مفصل إلى جانب مراتب الجهاد ومأأمر النبي ﷺ من جهاد وماقيمة الجهاد الكامل في حياة المسلمين ومنزلته ...

والله الموفــق ،،،

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل

فى هديه ﷺ فى الجهاد والمغازى والسرايا والبعوث

لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقُبَّته ، ومنازل أهله أعلى المنازل فى الجنة ، كما لهم الرفعة فى الدنيا ، فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة ، كان رسول الله ﷺ فى الذروة العليا منه ، واستولى على أنواعه كلها ، فجاهد فى الله حق جهاده بالقلب ، والجنان ، والدعوة ، والبيان ، والسيف ، والسنان ، وكانت ساعاته موقوفةً على الجهاد ، بقلبه ، ولسانه ، ويده . ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا ، وأعظمهم عند الله قدرًا .

وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه ، وقال : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان ــ ٥١ و٥٢] ، فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار ، بالحجة ، والبيان وتبليغ القرآن ، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحُجة ، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة : ٧٣] . فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار ، وهو جهاد خواصِّ الأمة ، وورثة الرسل ، والقائمون به أفراد فى العالم ، والمشاركون فيه ، والمعاونون عليه ، وإن كانوا هم الأقلين عددًا ، فهم الأعظمون عند الله قدرًا .

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المُعارض ، مثل أن تتكلم به عند من تُخاف سطوته وأذاه ، كان للرسل ــ صلوات الله عليهم وسلامه ــ من ذلك الحظ الأوفر ، وكان لنبينا ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ من ذلك أكمل الجهاد وأتمُّه .

ولما كان جهاد أعداء الله فى الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه فى ذات الله ، كما قال النبى ﷺ : « **المجاهد مَنْ جَاهَدَ نفسهُ فى طاعة الله ، والمُهاجر من هَجَرَ مانهى الله عنه** » ، كان جهاد النفس مُقدماً على جهاد العدو فى الخارج ، وأصلًا له ، فإنه مالم يُجاهدْ نفسه أولاً لتفعل ما أُمِرَت به ، وتترك ما نُهيت عنه ، ويُحاربها فى الله ، لم يُمكنه جهاد عدوه فى الخارج ، فكيف يُمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه ، وعدوه الذى بين جنبيه قاهرٌ له ، متسلط عليه ، لم يُجاهده ولم يُحاربه فى الله ، بل لا يُمكنه الخروج إلى عدوه ، حتى يُجاهد نفسه على الخروج .

فهذان عدوان قد امتُحن العبد بجهادهما ، وبينهما عدوٌ ثالث ، لايمكنه جهادهما إلا بجهاده ، وهو واقف بينهما يُثَبِّطُ العبد عن جهادهما ، ويُخَذِّله ، ويُرجِفُ به ، ولا يزال يُخَيِّل له مافى جهادهما من المشاق ، وترك الحظوظ ، وفوت اللذات ، والمشتهيات ، ولا يُمكنه أن يُجاهد ذَيْنِكَ العدوين إلا بجهاده ، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما ، وهو الشيطان ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر : ٦] . والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه على استفراغ الوُسع فى مُحاربته ومجاهدته ، كأنَّهُ عدو لا يَفْتُر ، ولا يُقصِّر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس .

فهذه ثلاثة أعداء ، أُمِرَ العبد بمحاربتها وجهادها ، وقد بُلى بمحاربتها فى هذه الدار ، وسُلِّطَتْ عليه امتحاناً من الله له وابتلاء ، فأعطى الله العبد مدداً وعُدَّةً وأعواناً وسلاحاً لهذا الجهاد ، وأعطى أعداءه مدداً وعُدَّةً وأعواناً وسلاحاً ، وبلا أحد الفريقين بالآخر ، وجعل بعضهم لبعض فتنة لِيَبْلُوَ أخبارهم ، ويمتحن من يتولاه ، ويتولى رسله ، ممن يتولى الشيطان وحزبه ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد : ٤] ، وقال تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد : ٣١] . فأعطى عباده الأسماع

والأبصار ، والعُقول والقُوى ، وأنزل عليهم كُتُبَه ، وأرسلَ إليهم رسُلَه ، وأمدَّهم بملائكته ، وقال لهم : ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الأنفال : ١٢] وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوهم ، وأخبرهم أنَّهم إن امتثلوا ما أمرهم به ، لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم ، وأنه إن سلطه عليهم ، فلتركهم بعض ما أُمروا به ، ولمعصيتهم له ، ثم لم يوئسهم ، ولم يُقنِّطهم ، بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم ، ويُداووا جراحهم ، ويعودوا إلى مُناهضة عدوهم فينصرهم عليهم ، ويُظفرهم بهم ، فأخبرهم أنه مع المتقين منهم ، ومع المحسنين ، ومع الصابرين ، ومع المؤمنين ، وأنه يُدافع عن عباده المؤمنين مالا يدافعون عن أنفسهم ، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم ، ولولا دفاعه عنهم ، لتخطفهم عدوهم ، واجتاحهم .

وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم ، وعلى قدره ، فإن قوى الإيمان ، قويت المدافعة ، فمن وجد خيراً ، فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه .

وأمرهم أن يُجاهدوا فيه حقَّ جهاده ، كما أمرهم أن يتقوه حق تُقاته ، وكما أن حقَّ تُقاته أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذكَرَ فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر ، فحق جهاده : أن يُجاهد العبد نفسه لِيُسْلِمَ قلبه ولسانه وجوارحه لله ، فيكون كله لله ، وبالله ، لا لنفسه ، ولا بنفسه ، ويُجاهد شيطانه بتكذيب وعده ، ومعصية أمره ، وارتكاب نهيه ، فإنه يَعِدُ الأمانيَّ ، ويُمنى الغرور ، ويعد الفقر ، ويأمر بالفحشاء ، وينهى عن التُّقى والهدى ، والعفة والصبر ، وأخلاق الإيمان كلها ، فجاهده بتكذيب وعده ، ومعصية أمره ، فينشأ له من هذين الجهادين قوةٌ وسلطان ، وعُدَّةٌ يُجاهد بها أعداء الله فى الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله ، لتكون كلمة الله هى العليا .

واختلفت عبارات السلف فى حق الجهاد : فقال ابن عباس : هو استفراغ الطاقة فيه ، وألا يخاف فى الله لومة لائم . وقال مقاتل [1]: اعملوا لله حق عمله ، واعبدوه حق

(١) هو مقاتل بن حيان النبطى أو بسطام البلخى روى عن سعيد بن المسيب والشعبى والحسن وقتادة ومجاهد ، وعنه إبراهيم بن أدهم وابن المبارك ، ثقة

عبادته . وقال عبدالله بن المبارك : هو مجاهدة النفس والهوى . ولم يُصب من قال : إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يُطاق ، وحق تُقاته وحق جهاده : هو ما يُطيقه كل عبد فى نفسه ، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين فى القدرة ، والعجز ، والعلم ، والجهاد . فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالـم شىء ، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شىء ، وتأمل كيف عقب الأمر بذلك بقوله : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] والحرج : الضِّيقُ ، بل جعله واسعاً يسَعُ كل أحد ، كما جعل رزقه يسع كل حى ، وكلَّف العبد بما يسعه العبد ، ورزق العبد ما يسعُ العبد ، فهو يسعُ تكليفه ، ويسعه رزقه ، وما جعل على عبده فى الدين من حرج بوجه ما ، قال النبى ﷺ : « **بُعِثْتُ بالحَنيفِيةِ السَّمحَةِ** » أى : بالملة ، فهى حنيفيَّة فى التوحيد ، سمحَةٌ فى العمل . وقد وسع الله سبحانه وتعالى على عباده غاية التَّوسعة فى دينه ، ورزقه ، وعفوه ، ومغفرته ، وبسط عليهم التوبة مادامت الروح فى الجسد ، وفتح لهم باباً لها لا يُغْلِقُهُ عنهم إلى أن تَطلُع الشمس من مغربها ، وجعل لكل سيئة كفارةً تُكفرها من توبة ، أو صدقة ، أو حسنة ماحية ، أو مُصيبة مكفرة ، وجعل بكل ما حرَّم عليهم عِوضاً من الحلال أنفع لهم منه ، وأطيب ، وألذَّ ، فيقوم مقامه ليستغنى العبد عن الحرام ، ويسعه الحلال ، فلا يضيقُ عنه ، وجعل لكل عُسرٍ يمتحنهم به يُسرًا قبله ، ويسرًا بعده ، « **فلن يَغلِب عسر يسرين** » ، فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده ، فكيف يُكلفهم مالا يسعهم ، فضلاً عما لا يُطيقونه ولا يقدرون عليه .

فصـــل

إذا عُرف هذا ، فالجهاد أربع مراتب : جهادُ النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين .

فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً :

● **إحداها** : أن يُجاهدها على تعلم الهدى ، ودين الحق الذى لافلاح لها ولاسعادة فى معاشها ومعادها إلا به ، ومتى فاتها علمه شقيت فى الدارين .

● **الثانية** : أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه ، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يَضُرها لم ينفعها .

● **الثالثة** : أن يُجاهدها على الدعوة إليه ، وتعليمه من لايعلمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ماأنزل الله من الهُدى والبينات ، ولا ينفعه علمه ، ولا يُنجيه من عذاب الله .

● **الرابعة** : أن يُجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق ، ويتحمل ذلك كله لله .

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع ، صار من الربانيين ، فإن السلف مُجمِعُونَ على أن العَالِمَ لايستحق أن يُسمى ربانيًّا حتى يعرف الحق ، ويعمل به ، ويُعلمه ، فمن علم وعمل وعلَّم ، فذاك يُدعى عظيماً فى ملكوت السماوات .

فصـــل

وأما جهاد الشيطان ، فمرتبتان :

إحداهما : جهاده على دفع ما يُلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة فى الإيمان .

الثانية : جهاده على دفع مايُلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات ، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين ، والثانى يكون بعده الصبر . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] ، فأخبر أن إمامة الدين ، إنما تُنال بالصبر واليقين ، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

فصـــل

وأما جهاد الكفار والمنافقين ، فأربع مراتب : بالقلب ، واللسان ، والمال ،

والنفس ، وجهاد الكفار أخصُّ باليد ، وجهاد المنافقين أخصُّ باللسان .

فصل

وأما جهادُ أرباب الظلم ، والبدع ، والمنكرات ، فثلاث مراتب : الأولى : باليد إذا قدر ، فإن عجز ، انتقل إلى اللسان ، فإن عَجز ، جاهد بقلبه ، فهذه ثلاثة عشر مرتبةً من الجهاد ، و « **مَنْ مات ولم يَغْزُ ، ولم يُحدِّث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق** » .

فصل

ولم يتم الجهاد إلا بالهجرة ، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان ، والرَّاجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

وكما أن الإيمان فرضٌ على كل أحد ، ففرضٌ عليه هجرتان فى كل وقت : هجرةٌ إلى الله عز وجل بالتوحيد ، والإخلاص ، والإنابة ، والتوكل ، والخوف ، والرَّجاء ، والمحبة ، والتوبة ، وهجرةٌ إلى رسوله بالمتابعة ، والانقياد لأمره ، والتصديق بخبره ، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره : « **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها ، أو امرأةٍ يتزوَّجها ، فهجرته إلى ماهاجر إليه** » . وفرض عليه جهاد نفسه فى ذات الله ، وجهاد شيطانه ، فهذا كُله فرض عين ؛ لاينوب فيه أحد عن أحد .

وأما جهاد الكفار والمنافقين ، فقد يُكتفى فيه ببعض الأمَّة ، إذا حصل منهم مقصود الجهاد .

فصــل

وأكملُ الخلق عند الله ، من كَمَّل مراتب الجهاد كلها ، والخلق متفاوتون فى منازلهم عند الله ، تفاوتهم فى مراتب الجهاد ، ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورُسله ، فإنه كمَّل مراتب الجهاد ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وشرع فى الجهاد من حين بُعث إلى أن توفاه الله عز وجل ، فإنه لما نزل عليه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ● قُمْ فَأَنذِرْ ● وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ● وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : ١ ــ ٤] شمَّر عن ساق الدعوة ، وقام فى ذات الله أتمَّ قيام ، ودعا إلى الله ليلًا ونهاراً ، وسرًّا وجهاراً ، ولمَّا نزل عليه : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر : ٩٤] صدع بأمر الله ، لا تأخذه فيه لومة لائم ، فدعا إلى الله : الصغير ، والكبير ، والحر ، والعبد ، والذكر ، والأنثى ، والأحمر ، والأسود ، والجن ، والإنس .

ولما صَدَعَ بأمر الله ، وصرح لقومه بالدعوة ، وناداهم بسب آلهتهم ، وعيب دينهم ، اشتد أذاهم له ، ولمن استجاب له من أصحابه ، ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى ، وهذهِ سنة الله عز وجل فى خلقه كما قال تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : ٤٣] . وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام : ١١٢] وقال : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٢ ، ٥٣] .

فعزَّى سبحانه نبيه بذلك ، وأن له أُسوةً بمن تقدَّمه من المرسلين ، وعزَّى أتباعه بقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وقوله : ﴿ الٓمٓ ● أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ● وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ● أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ● مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ● وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ● وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ● وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ● وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ● وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١ — ١٠] .

فليتأمل العبد سياق هذه الآيات ، وما تضمنته من العبر وكنوز الحكم ، فإنّ الناس إذا أُرسل إليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم : آمنا ، وإما ألا يقول ذلك ، بل يستمرّ على السيئات والكُفر ، فمن قال : آمنا ، امتحنه ربه ، وابتلاه ، وفتنه ، والفتنة : الابتلاء والاختيار ، ليتبين الصادق من الكاذب ، ومن لم يقل : آمنا ، فلا يَحسب أنه يُعْجِزُ الله ويفوته ويَسبقُه ، فإنه إنما يطوى المراحل فى يديه .

وكيف يَفِرُّ المَرْءُ عنهُ بِذَنْبِهِ إذا كان تُطْوى فى يَدَيْهِ المَرَاحِلُ

فمن آمن بالرسل وأطاعهم ، عاداه أعداؤهم وآذوه ، فابتُلى بما يُؤْلمه ، وإن لم يؤمن بهم ولم يُطعهم ، عُوقب فى الدنيا والآخرة ، فحصل له ما يُؤْلمه ، وكان هذا المؤلم له أعظم ألماً وأدوم من ألم اتباعهم ، فلابد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت فى الإيمان ، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداءً ، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة ، والمُعْرِضُ عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً ، ثم يصير

إلى الألم الدائم . وسئل الشافعى رحمه الله : أيما أفضل للرجل ، أن يُمكّن أو يُبتلى ؟ فقال : لا يُمكّن حتى يُبتلى . والله تعالى ابتلى أولى العزم من الرسل فلما صبروا مكّنهم ، فلا يَظُن أحد أنه يخلص من الألم ألبتة ، وإنما يتفاوت أهل الآلام فى العُقول ، فأعقلهم من باع ألماً مستمرًّا عظيماً ، بألم منقطع يسير ، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير ، بالألم العظيم المستمر .

فإن قيل : كيف يختار العاقل هذا ؟ قيل : الحامل له على هذا النقد والنسيئة .

والنفسُ مُوكلةٌ بِحُبِّ العاجِلِ

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ● وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ [القيامة : ٢٠ و٢١] . ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٧] .

وهذا يحصل لكل أحد ، فإن الإنسان مدنى بالطبع ؛ لابد له أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات ، فيطلبون منه أن يُوافقهم عليها ، فإن لم يوافقهم ، آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم ، حَصَل له الأذى والعذاب ، تارةً منهم ، وتارةً من غيرهم ، كمن عنده دِينٌ وتُقى حلَّ بين قوم فُجّارٍ ظلمةٍ ، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم ، أو سكوته عنهم ، فإن وافقهم ، أو سكت عنهم ، سَلِمَ من شرهم فى الابتداء ، ثم يتسلّطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ماكان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم ، وإن سَلِمَ منهم ، فلابد أن يُهان ويُعاقب على يد غيرهم ، فالحزم كُلُّ الحزم فى الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية : مَنْ أرضَى الله بسَخَطِ الناس ، كَفَاهُ الله مُؤْنَةَ الناسِ ، ومَنْ أرضَى الناس بسَخطِ الله لم يُغنوا عنه من الله شيئاً .

ومن تأمل أحوال العالم ، رأى هذا كثيراً فيمن يُعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة ، وفيمن يُعينُ أهلَ البدع على بدعهم هرباً من عُقوبتهم ، فمن هداه الله ، وألهمه رُشده ، ووقاه شرَّ نفسه ، امتنع من الموافقة على فعل المحرم ، وصبر على عُدوانهم ، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة ، كما كانت للرسل وأتباعهم ، كالمهاجرين ، والأنصار ، ومن ابتُلى من العلماء ، والعُبّاد ، وصالحى الولاة ، والتجار ، وغيرهم .

ولما كان الألم لا محيص منه ألبتة ، عزّى الله ــ سبحانه ــ من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت : ٥] . فضرب لمدة هذا الألم أجلًا ، لا بُدَّ أن يأتى ، وهو يوم لقائه ، فيلتذّ العبدُ أعظم اللذة بما تحمَّل من الألم من أجله ، وفى مرضاته ، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم فى الله ولله ، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ، ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل ، بل رُبما غيَّبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به ، ولهذا سأل النبى ﷺ ربه الشوق إلى لقائه ، فقال فى الدعاء الذى رواه أحمد وابن حبان [٢]: « **اللهم إنى أسألك بعلمك الغَيْبَ ، وقُدرتك على الخلق ، أحْيِنى إذا كانت الحياة خيراً لى ، وتوفَّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى ، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألكَ كلمة الحق فى الغضب والرضى ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألكَ نعيماً لا يَنْفَدُ ، وأسألكَ قُرَّةَ عينٍ لا تنقطع ، وأسألكَ الرضى بعد القضاء ، وأسألك بَرْدَ العيشِ بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهكَ ، وأسألك الشوق إلى لقائك فى غيرْ ضَرَّاء مُضِرةٍ ، ولا فِتنةٍ مُضلَّةٍ ، اللهم زيِّنا بزينة الإيمان ، واجعلنا هُداةً مهتدين** » .

فالشوق يحمل المشتاق على الجد فى السير إلى محبوبه ، ويُقرب عليه الطريق ، ويطوى له البعيد ، ويهوِّن عليه الآلام والمشاق ، وهو من أعظم نعمةٍ أنعم الله بها على عبده ، ولكن لهذه النعمة أقوالٌ وأعمالٌ ، هما السبب الذى تُنال به ، والله سبحانه سميعٌ لتلك الأقوال ، عليم بتلك الأفعال ، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ، ويشكرها ، ويعرف قدرها ، ويُحب المنعم عليه ، فتصلح عنده هذه النعمة ، ويصلح بها كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام :

---

(٢) هو أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن سعد التميمى البستى صاحب التصانيف ، سمع النسائى والحسن ابن سفيان وأبا يعلى الموصلى ، ولى قضاء سمرقند ، صنف المسند والتاريخ والضعفاء مات سنة ٣٥٤ هـ

٥٣] ، فإذا فاتت العبد نعمةٌ من نعم ربه ، فليقرأ على نفسه : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣] .

ثمَّ عزَّاهم تعالى بعزاءٍ آخر ، وهو أن جهادهم فيه ، إنما هو لأنفسهم ، وثمرته عائدة عليهم ، وأنه غنى عن العالمين ، ومصلحة هذا الجهاد ، ترجع إليهم ، لا إليه سُبحانه ، ثم أخبر أنه يُدخلهم بجهادهم وإيمانهم فى زُمرة الصالحين .

ثم أخبر عن حال الداخل فى الإيمان بلا بصيرة ، وأنه إذا أُوذى فى الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله ، وهى أذاهم له ، ونيلهم إياه بالمكروه والألم الذى لابد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم ، جعل ذلك فى فراره منهم ، وتركه السبب الذى ناله ، كعذاب الله الذى فرَّ منه المؤمنون بالإيمان ، فالمؤمنون لكمال بصيرتهم ، فرُّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان ، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المُفارَق عن قريب ، وهذا لضعف بصيرته ، فرَّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ، ففرَّ من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله ، فجعل ألم فتنة الناس فى الفرار منه ، بمنزلة ألم عذاب الله ، وغُبِنَ كل الغَبْن ؛ إذ استجار من الرمضاء بالنار ، وفرَّ من ألم ساعة إلى ألم الأبد ، وإذا نصر الله جنده وأولياءه ، قال : إنى كنت معكم ، والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق .

والمقصود : أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها ، فيُظهر بالامتحان طيِّبها من خبيثها ، ومن يصلح لموالاته وكراماته ، ومن لايصلح ، وليُمَحِّص النفوس التى تصلح له ويُخلصها بكير الامتحان ، كالذَّهب الذى لا يخلُص ولا يصفو من غِشه ، إلا بالامتحان ، إذ النفس فى الأصل جاهلة ظالمة ، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخَبث مايحتاج خروجه إلى السَّبك والتصفية ، فإن خرج فى هذه الدار ، وإلا ففى كير جهنم ، فإذا هُذب العبدُ أُذن له فى دخوله الجنة .

فصل

ولما دعا ﷺ إلى الله عز وجل ، استجاب له عباد الله من كل قبيلة ، فكان حائزَ قصب سَبْقِهم ، صِدِّيقُ الأمة ، وأسبقُها إلى الإسلام ، أبو بكر رضى الله

عنه ، فآزره فى دين الله ، ودعا معه إلى الله على بصيرة ، فاستجاب لأبى بكر : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عُبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص .

وبادر إلى الاستجابة له ﷺ صِدِّيقَةُ النساء : خديجة بنت خويلد ، وقامت بأعباء الصِّدِّيقية ، وقال لها : « **لقد خشيتُ على نفسى** » . فقالت له : أَبْشِر فوالله لا يُخزِيك الله أبداً ، ثم استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة ، والأخلاق والشيم ، على أن من كان كذلك لايُخْزَى أبداً ، فعلمت بكمال عقلها وفطرتها ، أن الأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، والشِّيم الشريفة ، تُناسب أشكالها من كرامة الله ، وتأييده ، وإحسانه ، ولا تُناسب الخزى والخذلان ، وإنما يُناسبه أضدادُها ، فمن ركّبه الله على أحسن الصفات وأحسن الأخلاق والأعمال ؛ إنما يليق به كرامته وإتمام نعمته عليه ، ومن ركبه على أقبح الصفات وأسوإ الأخلاق والأعمال ؛ إنما يليق به ماينا‌سبها ، وبهذا العقل والصديقية استحقت أن يُرسل إليها ربها بالسلام منه مع رسوليه : جبريل ومحمد صلّى الله عليه وسلم .

فصـــل

وبادر إلى الإسلام علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان ابن ثمانْ سنين ، وقيـل : أكثـر من ذلك ، وكان فى كفـالة رسـول الله ﷺ ، أخـذه من عمـه أبـى طالب إعانةً له فى سَنَةِ مَحْلٍ .

وبادر زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ ، وكان غُلاماً لخديجة ، فوهبته لرسول الله ﷺ لما تزوجها ، وقَدِمَ أبوه وعمه فى فدائه ، فسألا عن النبى ﷺ ، فقيل : هو فى المسجد ، فدخلا عليه ، فقالا : ياابن عبدالمطلب ، ياابن هاشم ، ياابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكّون العانى ، وتُطعِمون الأسير ، جئناك فى ابننا عندك ، فامنُن علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه ، قال : « **ومن هو ؟** » قالوا : زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : « **فَهَلَّا غيرَ ذلك** » ، قالوا : ماهو ؟ قال : « **أدْعُوهُ فأُخَيِّرُه ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختارُ على من اختارَنى أحداً** » ، قالا : قد رددتنا على النَّصَفِ ، وأحسنت ، فدعاه فقال : « **هل تعرفُ هؤلاء ؟** » ، قال : نعم ،

قال : « **مَنْ هذا ؟** » ، قال : هذا أبى ، وهذا عمى ، قال : « **فأنا مَنْ قد علمت ورأيتَ ، وعرفت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما** » ، قال : ما أنا بالذى أختارُ عليك أحداً أبداً ، أنت منى مكان الأب والعم ، فقالا : ويحكَ يازيد ، أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك ، وعلى أهل بيتك ؟! قال : نعم ، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً ، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك ، أخرجه إلى الحِجْر ، فقال : « **أُشهِدكُم أن زيداً ابنى ، يَرِثُنى وأرِثُه** » فلما رأى ذلك أبوه وعمه ، طابت نفوسهما ، فانصرفا ، ودعى زيد بن محمد ، حتى جاء الله بالإسلام : فنزلت ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٥] ، فَدُعِى من يومئذ ، زيد بن حارثة .. قال معمر [٣] فى « **جامعه** » عن الزهرى : ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة ، وهو الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه أنعم عليه ، وأنعم عليه رسوله ، وسماه باسمه .

وأسلم القس ورقة بن نوفل ، وتمنى أن يكون جَذَعًا إذ يُخرج رسولَ الله ﷺ قومُه ، وفى « **جامع الترمذى** » أن رسول الله ﷺ رآه فى المنام فى هيئة حسنة ، وفى حديث آخر : أنه رآه فى ثياب بياض .

ودخل الناس فى الدين واحداً بعد واحد ، وقريش لا تُنكِرُ ذلك ، حتى بادأهم بعيب دينهم ، وسبِّ آلهتهم ، وأنها لا تَضُر ولا تنفع ، فحينئذ شمَّروا له ولأصحابه عن ساق العداوة ، فحمى الله رسوله بعمه أبى طالب ، لأنه كان شريفاً معظَّماً فى قريش ، مُطاعاً فى أهله ، وأهل مكة لا يتجاسرون على مُكاشفته بشىءٍ من الأذى .

وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه ، لما فى ذلك من المصالح التى تبدو لمن تأمَّلها .

وأما أصحابه ، فمن كان له عشيرةٌ تحميه ، امتنع بعشيرته ، وسائرهم تصدَّوا له بالأذى والعذاب ، منهم عمار بن ياسر ، وأمُّه سُمية ، وأهل بيته ، عُذِّبوا فى

---

(٣) هو معمر بن راشد الأزدى الحرانى البصرى نزيل اليمن أبو عروة بن أبى عمرو روى عن الأعمش ومحمد ابن المنكدر وقتادة والزهرى ، ثقة مات سنة ١٥٣ هـ .

الله ، وكان رسول الله ﷺ إذا مرَّ بهم وهم يُعذبون يقول : « **صبراً يا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة** » .

ومنهم بلالُ بن رباح ، فإنه عُذِّب فى الله أشد العذاب ، فهان على قومه ، وهانت عليه نَفْسُه فى الله ، وكان كلما اشتدَّ عليه العذاب يقول : أحدٌ أحدٌ ، فيمر به ورقة بن نوفل ، فيقول : إى والله يابلال أحدٌ أحدٌ ، أما والله لئن قتلتُموه ، لأتخذنه حَنَاناً .

فصــل

ولما اشتد أذى المشركين على من أسلم ، وفُتِنَ منهم من فُتِنَ ، حتى يقولوا لأحدهم : اللات والعُزى إلهكَ من دون الله ؟ فيقول : نعم ، وحتى إن الجُعَلَ ليمرُّ بهم ، فيقولون : وهذا إلهُكَ من دون الله ، فيقول : نعم . ومرَّ عدوُّ الله أبو جهل بسُميةَ أمّ عمار بن ياسر ، وهى تُعذَّبُ وزوجها وابنها ، فطعنها بحربةٍ فى فرجها حتى قتلها .

كان الصِّدِّيق إذا مرَّ بأحد من العبيد يُعذب ، اشتراه منهم ، وأعتقه ، منهم بلال ، وعامر بن فُهَيرة ، وأم عبيس ، وزنِّيرة ، والنهدية ، وابنتها ، وجارية لبنى عدى ، كان عمر يُعذِّبها على الإسلام قبل إسلامه ، وقال له أبوه : يابنى أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك إذ فعلت مافعلت أعتقت قوماً جُلْداً يمنعونك ، فقال له أبو بكر : إنى أُريد ما أُريد .

فلما اشتد البلاء ، أذن الله سبحانه لهم بالهجرة الأُولى إلى أرض الحبشة ، وكان أول من هاجر إليها عثمان بن عفان ، ومعه زوجته رُقية بنت رسول الله ﷺ ، وكان أهل هذه الهجرة الأولى اثنى عشر رجلًا ، وأربع نسوة : عثمان ، وامرأته ، وأبو حذيفة وامرأته سهلة بنت سهيل ، وأبو سلمة وامرأته أم سلمة هند بنت أبى أميه ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وعبدالرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، وعامر بن ربيعة ، وامرأته ليلى بنت أبى حثمة ، وأبو سبرة بن أبى رُهم ، وحاطب بن عمرو ، وسهيل بن وهب ، وعبدالله بن مسعود . وخرجوا متسللين

سرًّا ، فوفّق الله لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجار ، فحملوهم فيهما إلى أرض الحبشة ، وكان مخرجهم فى رجب فى السنة الخامسة من المبعث ، وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاؤوا البحر ، فلم يُدركوا منهم أحداً ، ثم بلغهم أن قريشاً قد كفُّوا عن النبى ﷺ ، فرجعوا ، فلما كانوا دون مكة بساعة من نهار ، بلغهم أن قريشاً أشدُّ ماكانوا عداوةً لرسول الله ﷺ ، فدخل مَنْ دخل بجوار ، وفى تلك المرة دخل ابن مسعود ، فسلم على النبى ﷺ وهو فى الصلاة ، فلم يرد عليه ، فتعاظم ذلك على ابن مسعود ، حتى قال له النبى ﷺ : « **إنَّ الله قد أحدَث من أمره أن لا تَكلَّموا فى الصلاة** » هذا هو الصواب ، وزعم ابن سعد وجماعةٌ أن ابن مسعود لم يدخل ، وأنه رجع إلى الحبشة ، حتى قَدِمَ فى المرة الثانية إلى المدينة مع من قَدِم ، ورُدَّ هذا بأن ابن مسعود شهد بدراً ، وأجهز على أبى جهل ، وأصحاب هذه الهجرة إنما قدموا المدينة مع جعفر بن أبى طالب وأصحابه بعد بدر بأربع سنين أو خمس .

قالوا : فإن قيل : بل هذا الذى ذكره ابن سعد [٤] يُوافق قول زيد بن أرقم : كنا نتكلم فى الصلاة ، يكلم الرجل صاحبه ، وهو إلى جنبه فى الصلاة حتى نزلت ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ [البقرة : ٢٣٨] فأُمِرنا بالسكوت ، ونُهينا عن الكلام ، وزيد بن أرقم من الأنصار ، والسورة مدنية ، وحينئذ فابن مسعود سلّم عليه لما قدم وهو فى الصلاة ، فلم يرد عليه حتى سلم ، وأعلمه بتحريم الكلام ، فاتفق حديثه وحديث ابن أرقم .

قيل : يُبطل هذا شهود ابن مسعود بدراً ، وأهل الهجرة الثانية إنما قدموا عام خيبر مع جعفرٍ وأصحابه ، ولو كان ابن مسعود ممن قدم قبل بدر ، لكان لقدومه ذكر ، ولم يذكر أحد قدوم مهاجرى الحبشة إلا فى القدمة الأولى بمكة ، والثانية عام خيبر مع جعفر ، فمتى قدم ابن مسعود فى غير هاتين المرتين ، ومع من ؟ وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال ابن إسحاق ، قال : وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ

---

(٤) هو محمد بن سعد بن منيع البصرى الحافظ كاتب الواقدى نزيل بغداد ثقة روى عنه أبو بكر بن أبى الدنيا والحارث بن أسامة ، مات سنة ٢٣٠ هـ .

الذين خرجوا إلى الحبشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة ، بلغهم أن إسلام أهل مكة كان باطلًا ، فلم يدخل منهم أحدٌ إلا بجوار ، أو مستخفياً . فكان ممن قدم منهم ، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة ، فشهد بدراً وأحداً ... فذكر منهم عبدالله بن مسعود .

فإن قيل : فما تصنعون بحديث زيد بن أرقم ؟ قيل : قد أُجيب عنه بجوابين ، **أحدهما** : أن يكون النهى عنه قد ثبت بمكة ، ثم أُذِنَ فيه بالمدينة ، ثم نُهى عنه . **والثانى** : أن زيد بن أرقم كان من صغار الصحابة ، وكان هو وجماعة يتكلمون فى الصلاة على عادتهم ، ولم يبلغهم النهى ، فلما بلغهم انتهوا ، وزيد لم يُخبر عن جماعة المسلمين كلهم بأنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة إلى حين نزول هذه الآية ، ولو قُدِّرَ أنه أخبر بذلك لكان وهماً منه .

ثم اشتد البلاء من قريش على من قدم من مهاجرى الحبشة وغيرهم ، وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذى شديداً ، فأذن لهم رسول الله ﷺ فى الخروج إلى أرض الحبشة مرَّة ثانية ، وكان خروجهم الثانى أشقَّ عليهم وأصعب ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ، ونالوهم بالأذى ، وصَعُب عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حسن جواره لهم ، وكان عِدَّةُ من خرج فى هذه المرة ثلاثةً وثمانين رجلًا ، إن كان فيهم عمار بن ياسر ، فإنه يُشك فيه ، قاله ابن إسحاق ، ومن النساء تسع عشرة امرأة .

قلت : قد ذُكر فى هذه الهجرة الثانية عثمان بن عفان وجماعةٌ ممن شهد بدرًا ، فإما أن يكون هذا وهماً ، وإما أن يكون لهم قدمةٌ أخرى قبل بدر ، فيكون لهم ثلاث قدمات : قدمة قبل الهجرة ، وقدمة قبل بدر ، وقدمة عام خيبر ، ولذلك قال ابن سعد وغيره : إنهم لما سمعوا مُهاجَرَ رسول الله ﷺ إلى المدينة ، رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلًا ، ومن النساء ثمان نسوة ، فمات منهم رجلان بمكة ، وحُبس بمكة سبعة ، وشهد بدرًا منهم أربعة وعشرون رجلًا .

فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى النجاشى يدعوه إلى الإسلام ، وبعث به مع عمرو

ابن أمية الضمرى ، فلما قُرئ عليه الكتاب ، أسلم ، وقال : لئن قدرْتُ أن آتيه لآتينه .

وكتب إليه أن يُزَوجه أمَّ حبيبة بنت أبى سُفيان ، وكانت فيمن هاجر إلى أرض الحبشة مع زوجها عُبيد الله بن جحش ، فتنصَّر هناك ومات ، فزوجه النجاشى إياها ، وأصدقها عنه أربعمائة دينار ، وكان الذى ولى تزويجها خالد بن سعيد بن العاص .

وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يبعث إليه من بقى عنده من أصحابه ، ويحملهم ، ففعل ، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضَّمرى ، فقدموا على رسول الله ﷺ بخيبر ، فوجدوه قد فتحها ، فكلّم رسول الله ﷺ المسلمين أن يدخلوهم فى سهامهم ، ففعلوا .

وعلى هذا فيزول الإشكال الذى بين حديث ابن مسعود وزيد بن أرقم ، ويكون ابن مسعود قدم فى المرة الوسطى بعد الهجرة قبل بدر إلى المدينة ، وسلم عليه حينئذ ، فلم يرد عليه ، وكان العهد حديثاً بتحريم الكلام ، كما قال زيد بن أرقم ، ويكون تحريم الكلام بالمدينة ، لا بمكة ، وهذا أنسب بالنسخ الذى وقع فى الصلاة والتغيير بعد الهجرة ، كجعلها أربعاً بعد أن كانت ركعتين ، ووجوب الاجتماع لها .

فإن قيل : ما أحسنه من جمع وأثبته لولا أن محمد بن إسحاق قد قال ما حكيتم عنه أن ابن مسعود أقام بمكة بعد رجوعه من الحبشة حتى هاجر إلى المدينة ، وشهد بدراً ، وهذا يدفع ماذكر .

قيل : إن كان محمد بن إسحاق قد قال هذا ، فقد قال محمد بن سعد فى « **طبقاته** » : إن ابن مسعود مكث يسيراً بعد مقدمه ، ثم رجع إلى أرض الحبشة ، وهذا هو الأظهر ، لأن ابن مسعود لم يكن له بمكة من يَحميه ، وما حكاه ابن سعد قد تضمَّن زيادة أمر خفى على ابن إسحاق ، وابن إسحاق لم يذكر من حدَّثه ، ومحمد بن سعد أسند ماحكاه إلى المطلب بن عبدالله بن

حنطب ، فاتفقت الأحاديث ، وصدَّق بعضها بعضاً ، وزال عنها الإشكال ، ولله الحمد والمنة .

وقد ذكر ابن إسحاق فى هذه الهجرة إلى الحبشة أبا موسى الأشعرى عبدالله بن قيس ، وقد أنكر عليه ذلك أهل السير ، منهم محمد بن عمر الواقدى وغيره ، وقالوا : كيف يخفى ذلك على ابن إسحاق أو على مَن دونه ؟

قلت : وليس ذلك مما يخفى على مَنْ دون محمد بن إسحاق فضلًا عنه ، وإنما نشأ الوهم أنّ أبا موسى هاجر من اليمن إلى أرض الحبشة إلى عند جعفر وأصحابه لما سمع بهم ، ثم قَدِمَ معهم إلى رسول الله ﷺ بخيبر ، كما جاء مصرحاً به فى « الصحيح » ، فعد ذلك ابن إسحاق لأبى موسى هجرة ، ولم يقل : إنه هاجر من مكة إلى أرض الحبشة لينكر عليه .

فصــل

فانحاز المهاجرون إلى مملكة أصحمة النجاشى آمنين ، فلما عَلمَتْ قريش بذلك ، بعثت فى أثرهم عبدالله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ، بهدايا وتُحفٍ من بلدهم إلى النجاشى ليردهم عليهم ، فأبى ذلك عليهم ، وشفعوا إليه بعظماء بطارقته ، فلم يجبهم إلى ماطلبوا ، فوَشوا إليه : إن هؤلاء يقولون فى عيسى قولاً عظيماً ، يقولون : إنه عبدالله ، فاستدعى المهاجرين إلى مجلسه ، ومُقَدَّمهُم جعفر ابن أبى طالب ، فلما أرادوا الدخول عليه ، قال جعفر : يستأذن عليك حزب الله ، فقال للآذن : قل له يُعيد استئذانه ، فأعاده عليه ، فلما دخلوا عليه قال : ماتقولون فى عيسى ؟ ، فتلا عليه جعفر صدراً من سورة (كهيعص) ، فأخذ النجاشى عُوداً من الأرض فقال : ما زاد عيسى على هذا ولا هذا العود ، فتناخرت بطارقته عنده ، فقال : وإن نخرتم ، قال : اذهبوا فأنتم سُيوم بأرضى ، من سبَّكم غُرِّم . والسيوم : الآمنون فى لسانهم ، ثم قال للرسولين : لو أعطيتمونى دَبْراً من ذهب ، يقول : جبلًا من ذهب ، ما أسلمتهم إليكما ، ثم أمر فرُدَّت عليهما هداياهما ، ورجعا مقبوحين .

فصـــل

ثم أسلم حمزة عمه وجماعة كثيرون ، وفشا الإسلام ، فلما رأت قريش أمر رسول الله ﷺ يعلو ، والأمور تتزايد ، أجمعوا على أن يتعاقدوا على بنى هاشم ، وبنى عبدالمطلب ، وبنى عبد مناف ، أن لا يُبايعوهم ، ولا يُناكحوهم ، ولا يُكلموهم ، ولا يُجالسوهم ، حتى يُسلموا إليهم رسول الله ﷺ ، وكتبوا بذلك صحيفة ، وعلّقوها فى سقف الكعبة ، يقال : كتبها منصور بن عكرمة بن عامر ابن هاشم ، ويقال : النّضر بن الحارث ، والصحيح : أنه بغيض بن عامر بن هاشم ، فدعا عليه رسول الله ﷺ ، فَشُلَّتْ يده ، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم ، إلا أبا لهب ، فإنه ظاهر قريشاً على رسول الله ﷺ وبنى هاشم ، وبنى المطلب ، وحُبس رسولا الله ﷺ ومَن معه فى الشِّعْب شعب أبى طالب ليلة هلال المحرم ، سنة سبع من البعثة ، وعُلقت الصحيفة فى جوف الكعبة ، وبقوا محبوسين ومحصورين ، مضيَّقاً عليهم جدًّا ، مقطوعاً عنهم المِيرة والمادة ، نحو ثلاث سنين ، حتى بلغهم الجَهْدُ ، وسُمع أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشِّعْب ، وهناك عمل أبو طالب قصيدته اللامية المشهورة ، أولها :

جزى الله عنا عَبْدَ شمسٍ ونَوْفَلًا عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلِ

وكانت قريش فى ذلك بين راضٍ وكاره ، فسعى فى نقض الصحيفة من كان كارهاً لها ، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك ، مشى فى ذلك إلى المُطعِم بن عدى وجماعة من قريش ، فأجابوه إلى ذلك ، ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم ، وأنه أرسل عليها الأَرَضَةَ ، فأكلت جميع مافيها من جَوْرٍ وقطيعةٍ وظُلم ، إلا ذكر الله عز وجل ، فأخبر بذلك عمَّه ، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا ، فإن كان كاذباً خلّينا بينكم وبينه ، وإن كان صادقاً ، رجعتُم عن قطيعتنا وظُلمنا ، قالوا : قد أنصفت ، فأنزلوا الصحيفة ، فلما رأوا الأمر كما أخبر به رسول الله ﷺ ، ازدادوا كُفرًا إلى كُفرهم ، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشِّعب . قال

ابن عبد البر [٥]: بعد عشرة أعوام من المبعث ، ومات أبو طالب بعد ذلك بستة أشهر ، وماتت خديجة بعده بثلاثة أيام ، وقيل : غير ذلك .

فصــل

فلما نُقِضتِ الصحيفة ، وافق موت أبى طالب وموت خديجة ، وبينهما يسير ، فاشتد البلاء على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه ، وتجرؤوا عليه ، فكاشفوه بالأذى ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف رجاء أن يُؤووه وينصروه على قومه ، ويمنعوه منهم ، ودعاهم إلى الله عز وجل فلم ير من يُؤوى ، ولم ير ناصرًا ، وآذوه مع ذلك أشد الأذى ، ونالوا منه مالم ينله قومه ، وكان معه زيد ابن حارثة مولاه ، فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه ، فقالوا : اخرج من بلدنا ، وأغروا به سُفهاءهم ، فوقفوا له سماطَيْن ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شِجاج فى رأسه ، فانصرف راجعاً من الطائف إلى مكة محزوناً ، وفى مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهور دعاء الطائف : « **اللهم إليك أشكو ضعف قُوتى ، وقلة حيلتى ، وهوَانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تَكِلُنى ، إلى بعيدٍ يتجَهمُنى ؟ أو إلى عدوٍّ مَلَّكتَهُ أمرى ، إن لم يكن بكَ غَضَبٌ علىَّ فلا أُبالى ، غير أن عافِيَتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهكَ الذى أشرقت له الظلمات ، وصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يَحِلَّ علىَّ غضبُكَ ، أو أن يَنْزِلَ بى سَخَطُك ، لك العُتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك** » .

فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال ، يستأمره أن يُطبق الأخشبين على أهل مكة ، وهما جبلاها اللذان هى بينهما ، فقال : « **لا ، بل أستَأنى بهم لعل الله يُخرج من أصلابهم من يَعبده لايشرك به شيئاً** » .

---

(٥) هو الحافظ أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمرى القرطبى ، ولد سنة ٣٦٨ هـ ثقة مات سنة ٤٦٣ هـ .

فلما نزل بنخلة مرجعه ، قام يُصلى من الليل ، فَصُرِفَ إليه نفر من الجن ، فاستمعوا قراءته ، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزل عليه : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ● قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ● يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ● وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ — ٣٢]

وأقام بنخلة أياماً ، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم ، وقد أخرجوك ؟ يعنى قريشاً ، فقال : « **يازيد** ، « **إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصرٌ دينه ومظهر نبيه** » .

ثم انتهى إلى مكة فأرسل رجلًا من خزاعة إلى مُطعم بن عدى : « **أدْخُلُ فى جوارِكَ** » ؟ فقال : نعم ، ودعا بنيه وقومه ، فقال : البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرتُ محمداً ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة ، حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته ، فنادى : يامعشر قريش ، إنى قد أجرتُ محمداً ، فلا يَهجُهُ أحدٌ منكم ، فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن ، فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، والمطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته .

فصل

فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة ، وأيده الله بنصره بعباده المؤمنين الأنصار ، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التى كانت بينهم ، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام ، من الأسود والأحمر ، وبذلوا نفوسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم ، رمتهم

العرب واليهود عن قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب ، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة ، واشتد الجناح ، فأذن لهم حينئذ فى القتال ، ولم يفرضه عليهم ، فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٣٩] .

وقد قالت طائفة : إن هذا الإذن كان بمكة ، والسورة مكية ، وهذا غلط لوجوه :

أحدها : أن الله لم يأذن بمكة لهم فى القتال ، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة .

الثانى : أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة ، وإخراجهم من ديارهم ، فإنه قال ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج : ٤٠] وهؤلاء هم المهاجرون .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج : ١٩] نزلت فى الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين .

الرابع : أنه قد خاطبهم فى آخرها بقوله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ﴾ والخطاب بذلك كله مدنى ، فأما الخطاب ﴿ ياأيها الناس ﴾ فمشترك .

الخامس : أنه أمر فيها بالجهاد الذى يَعُمُّ الجهاد باليد وغيره ، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة ، فأمَّا جهاد الحُجَّة ، فأمر به فى مكة بقوله : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ﴾ أى : بالقرآن ﴿ جهادا كبيراً ﴾ [الفرقان : ٥٢] فهذه سورة مكية ، والجهاد فيها هو التبليغ ، وجهاد الحجة ، وأما الجهاد المأمور به فى (سورة الحج) فيدخل فيه الجهاد بالسيف .

السادس : أن الحاكم [٦] روى فى « مستدركه » من حديث الأعمش [٧]، عن مسلم البطين [٨]، عن سعيد بن جبير [٩] عن ابن عباس قال : لما خَرجَ رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجُوا نبيَّهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون لَيَهْلِكُنَّ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ [الحج : ٣٩] وهى أول آية نزلت فى القتال ، وإسناده على شرط « الصحيحين » ، وسياق السورة يدل على أن فيها المكيَّ والمدنيَّ ، فإن قصة إلقاء الشيطان فى أمنية الرسول مكية ، والله أعلم .

فصل

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يُقاتِلهم فقال : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٠]

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، وكان محرَّما ، ثم مأذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين ، إما فرض عين على أحد القولين ، أو فرض كفاية على المشهور .

والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب ، وإما باللسان ، وإما بالمال ، وإما باليد ، فعلى كل مسلم أن يُجاهد بنوع من هذه الأنواع .

أما الجهاد بالنفس ، ففرض كفاية ، وأما الجهاد بالمال ، ففى وجوبه قولان ، والصحيح وجوبه ، لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس فى القرآن سواء ، كما قال تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(٦) هو الحافظ الكبير إمام المحدثين أبو عبدالله محمد بن عبدالله محمد بن حمدويه بن نعيم الضبى الطهمانى يعرف بابن البيع ثقة ولد سنة ٣٢١ هـ ومات سنة ٤٠٥ هـ حدث عنه الدار قطنى وابن أبى الفوارس والبيهقى

(٧) هو سليمان بن مهران الأعمش الأسدى الكاهلى مولاهم أبو محمد الكوفى ثقة روى عنه أبو إسحاق السبيعى وشعبة والسفيانان مات سنة ١٤٨ هـ

(٨) هو مسلم بن عمران ويقال ابن أبى عمران البطين أبو عبدالله ، ثقة روى عنه ابنه شبة بن مسلم وسلمة ابن كهيل وأبو إسحاق السبيعى وسليمان الأعمش وغيرهم .

(٩) هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الوالبى ثقة قتله الحجاج بن يوسف سنة ٩٢ هـ

ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤١] وعلّق النجاة من النار به ، ومغفرة الذنب ، ودخول الجنة ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ● تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ● يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الصف ١٠ — ١٢] وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك ، أعطاهم مايُحبون من النصر والفتح القريب فقال : ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ [الصف : ١٣] أى :

ولكم خصلة أخرى تُحِبُّونها فى الجهاد ، وهى ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ ، وأخبر سبحانه أنه ﴿ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١٠] ، وأعاضهم عليها الجنة ، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء ، وهى التوراة والإنجيل والقرآن ، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى ، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذى عاقدوه عليه ، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم .

فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ، ما أعظم خطره وأجلّه ، فإن الله عز وجل هو المشترى ، والثمن جات النعيم ، والفوز برضاه ، والتمتع برؤيته هناك ، والذى جرى على يده هذا العفد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر ، وإن سلعةً هذا شأنها لقد هُيئت لأمرٍ عظيمٍ وخطبٍ جسيم :

قد هَيَّؤوكَ لأمرٍ لو فَطِنْتَ لهُ   فاربأْ بنَفْسِكَ أنْ تَرعَى مَعَ الهَمَلِ

مهر المحبة والجنة بذلُ النفس والمال لمالكهما الذى اشتراهما من المؤمنين ، فما للجبان المُعرض المُفلس وسوم هذه السلعة ، بالله ماهُزلَت فيستامها المفلسون ، ولا كسَدَت ، فيبيعها بالنسيئة المعسرون ، لقد أقيمت للعرض فى سوق من يُريد ، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس ، فتأخر البطالون ، وقام المحبون ينتظرون أيهُّم يصلح أن يكون نفسه الثمن ، فدارت السلعة بينهم ، ووقعت فى يد ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

لما كثُر المدعون للمحبة ، طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى ، فلو يُعطى

الناس بدعواهم ، لادَّعى الخلى حرقة الشجى ، فتنوع المدعون فى الشهود ، فقيل : لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] فتأخر الخلق كلهم ، وثبت أتباع الرسول فى أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه ، فطولبوا بعدالة البينة ، وقيل : لا تُقبل العدالة إلا بتزكية ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] فتأخر أكثر المدعين للمحبة ، وقام المجاهدون ، فقيل لهم : إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ، فسلموا ما وقع عليه العقد ، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين ، فلما رأى التجار عظمة المشترى وقدر الثمن ، وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه ، ومقدار الكتاب الذى أُثبت فيه هذا العقد ، عرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع ، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة ، تذهب لذتها وشهوتها ، ويبقى تبعتها وحسرتها ، فإن فاعل ذلك معدود فى جملة السفهاء ، فعقدوا مع المشترى بيعة الرضوان رضى واختياراً من غير ثبوت خيار ، وقالوا : والله لا نقيلُكَ ولا نستقيلُكَ ، فلما تم العقد ، وسلموا المبيع ، قيل لهم : قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا ، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ماكانت ، وأضعاف أموالكم معها ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران :١٦٩] لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلباً للربح عليكم ، بل ليظهر أثر الجود والكرم فى قبول المعيب والإعطاء عليه أجلّ الأثمان ، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمّن . تأمل قصة جابر بن عبدالله [10] وقد اشترى منه ﷺ بعيره ، ثم وفَّاهُ الثَّمَنَ وزاده ، وردَّ عليه البعير ، وكان أبوه قد قُتل مع النبى ﷺ فى وقعة أحد ، فذكّره بهذا الفعل حال أبيه مع الله ، وأخبره : « إن الله أحياه ، وكلّمه كفاحاً وقال : ياعبدى تَمَنَّ على ، فسبحان من عَظُمَ جوده وكرمه أن يُحيط به علم الخلائق ، فقد أعطى السلعة ، وأعطى الثمن ، ووفّق لتكميل العقد ، وقبل المبيع على عيبه ، وأعاض

(١٠) هو جابر بن عبدالله الإمام أبو عبدالله الأنصارى الفقيه مفتى المدينة فى زمانه ، حمل عن النبى صلى الله عليه وسلم علما كثيرا نافعا ، مات سنة ٧٨ هـ .

عليه أجلَّ الأثمان ، واشترى عبده من نفسه بماله ، وجمع له بين الثمن والمُثمَّن ، وأثنى عليه ، ومدحه بهذا العقد ، وهو سبحانه الذى وفقه له ، وشاءه منه .

فَحيَّهلا إنْ كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ فَقَدْ ... حَدَا بكَ حَادى الشَّوْقِ فَاطْوِ المَرَاحِلَا
وَقُـلْ لِمنـادى حُبِّهِـمْ وَرِضاهُـمُ ... إِذَا مَا دَعَا لَبَّـيْكَ أَلْفـاً كَوَامِـلَا
وَلاَ تَنْظُرِ الأَطْلاَلَ مِنْ دُونِهِمْ فَإِنْ ... نَظَرْتَ إِلَى الأَطْلَالِ عُدْنَ حَوَائِلَا
ولا تَنْتَظِرْ بالسَّيْرِ رُفْقَةَ قاعِدٍ ... وَدَعْهُ فإن الشَّوْقَ يكفيك حاملَا
وَخُذْ مِنْهُمُ زاداً إِلَيْهِمْ وَسِرْ عَلَى ... طَرِيقِ الهُدَى وَالحُبِّ تُصْبِحْ وَاصِلَا
وأَحْيِ بِذِكْرَاهُم سُرَاكَ إِذَا دَنَتْ ... رِكَابُكَ فَالذِّكرى تُعيدُكَ عَامِلَا
وَإِمَّا تَخَافَنَّ الكَلَالَ فَقُل لَهَا ... أَمَامَكِ وِرْدُ الوَصْلِ فَابْغِى المَنَاهِلَا
وَخُذْ قَبَسًا من نُورِهِمْ ثُمَّ سِرْ بِهِ ... فَنُورُهُم يَهْدِيكَ لَيْسَ المَشَاعِلَا
وَحَيِّ عَلَى وادِى الأَرَاكِ فَقِلْ بِهِ ... عَسَاكَ تَرَاهُم ثَمَّ إِنْ كُنْتَ قَائِلَا
وَإِلا فَفِى نَعْمَانَ عِنْدِى مُعَرِّفُ الْـ ... ـأَحِبَّةِ فَاطْلُبْهُمْ إِذَا كُنْتَ سَائِلَا
وإِلَّا فَفِى جَمْعٍ بِلَيْلَتِهِ فَإِنْ ... تَفُتْ فَمِنًى يَاوَيْحَ مَنْ كَانَ غَافِلَا
وَحَيِّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّها ... مَنَازِلُكَ الأُولَى بِهَا كُنْتَ نَازِلَا
وَلكِن سَبَاكَ الكَاشِحُونَ لأَجْلِ ذا ... وَقَفْتَ عَلَى الأَطْلَالِ تَبْكِى المَنَازِلَا
وَحَيِّ عَلَى يَومِ المَزِيدِ بِجَنَّةِ الْـ ... ـخُلُودِ فَجُدْ بِالنَّفسِ إِنْ كُنْتَ بَاذِلَا
فَدَعْهَا رُسُوماً دَارِسَاتٍ فَمَا بِهَا ... مَقِيلٌ وَجَاوِزْهَا فَلَيْسَتْ مَنَازِلَا
رُسُوماً عَفَتْ يَنْتَابُها الخَلْقُ كَمْ بِهَا ... قَتِيلٌ وَكَمْ فِيهَا لِذا الخَلْقِ قَاتِلَا
وَخُذْ يَمْنَةً عَنْهَا عَلَى المَنْهَجِ الذِى ... عَلَيْهِ سَرَى وَفْدُ الأَحِبَّةِ آهِلَا
وقُلْ سَاعِدِى يَانَفْسُ بالصَّبْرِ سَاعَةً ... فَعِنْدَ اللِّقَا ذَا الكَدُّ يُصْبِحُ زَائِلَا
فَمَا هِىَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِى ... وَيُصْبِحُ ذُو الأَحْزانِ فَرحَانَ جَاذِلَا

لقد حرك الداعى إلى الله ، وإلى دار السلام النفوس الأَبِيَّة ، والهِممَ العالية ، وأسمع منادى الإيمان من كانت له أُذُنٌ واعية ، وأسمع الله من كان حيًّا ، فهزه السماعُ إلى منازل الأبرار ، وحدا به فى طريق سيره ، فما حطَّت به رِحالُه إلا بدار القَرَار ، فقَال : « **انْتَدَبَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيله ، لَا يُخرجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ**

بِى ، وتَصْديقٌ برُسُلِى أن أرجعَهُ بِمَا نَالَ منْ أجرٍ أوْ غَنِيمَةٍ ، أوْ أُدخلَهُ الجنَّةَ ، وَلَوْلَا أنْ أشُقَّ عَلَى أمَّتِى مَا قَعدتُ خلْفَ سَرِيَّةٍ ، وَلَوددتُ أنِّى أُقْتَلُ فى سَبيلِ اللهِ ، ثُمَّ أحْيَا ، ثُمَّ أُقتَلُ ، ثُمَّ أحيَا ، ثُمَّ أُقتل » .

وقال : « مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فى سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ بآيَاتِ اللهِ ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاة حَتَّى يَرْجعَ المُجَاهِدُ فى سَبيل اللهِ ، وتوكَّلَ اللهُ لِلْمُجَاهِدِ فى سَبِيلِهِ بأنْ يَتَوَفَّاهُ أنْ يُدْخِلَهُ الجنَّةَ ، أوْ يَرْجِعَهُ سَالِماً مَعَ أجْرٍ أو غَنِيمةٍ » .

وقال : « غَدْوَةٌ فى سَبِيلِ اللهِ أوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ومَا فيهَا » .

وقال فيما يَروى عن ربِّه تبارك وتعالى : « أيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادى خَرَجَ مُجَاهِدًا فى سَبِيلى ابْتِغاءَ مَرْضاتى ، ضَمِنْتُ لهُ أنْ أرْجعه إنْ أرْجَعْتُهُ بما أصابَ مِنْ أجْرٍ أو غَنِيمَةٍ ، وَإِنْ قَبَضْتُهُ أنْ أغْفِرَ له وَأرْحَمَهُ وأُدْخِلَهُ الجَنَّةَ » .

وقال : « جَاهِدُوا فى سَبِيلِ اللهِ ، فإنَّ الجِهَادَ فى سَبِيلِ اللهِ بَابٌ مِنْ أبْوَابِ الجَنَّةِ ، يُنْجِى اللهُ به مِن الهمِّ والغَمِّ » .

وقال : « أنَا زعيمٌ » والزَّعيمُ الحَميلُ « لِمَنْ آمَنَ بِى ، وأسلَمَ وهَاجَرَ بِبَيْتٍ فى رَبَضِ الجَنَّةِ ، وببيتٍ فى وَسَطِ الجَنَّةِ ، وَأنَا زَعِيمٌ لِمَنْ آمَنَ بِى وَأسْلَمَ ، وجَاهَدَ فى سَبِيلِ اللهِ بِبَيْتٍ فى رَبَضِ الجَنَّةِ ، وَبِبَيْتٍ فى وَسَط الجَنَّةِ ، وَبِبَيْتٍ فى أعلَى غُرَفِ الجَنَّة ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ، لَم يَدَعْ لِلخَيْرِ مَطلَباً ، ولا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَباً ، يَمُوتُ حَيْثُ شَاءَ أنْ يموت » .

وقال : « مَنْ قَاتَلَ فى سَبِيلِ اللهِ من رَجُلٍ مُسْلِمٍ فُواقَ نَاقةٍ ، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّة » .

وقال : « إنَّ فى الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أعَدَّهَا اللهُ للمُجاهِدينَ فى سَبِيل اللهِ ، مَابَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْن كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأرض ، فَإذَا سَألْتُم اللهَ فاسْألُوهُ الفِرْدَوْس ، فإنَّهُ أوْسَطُ الجَنَةِ وأعلى الجنة ، وفَوقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَن ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أنهَارُ الجَنَّةِ » .

وقال لأبى سعيد [11]: « **مَنْ رَضِىَ باللهِ ربًّا ، وبالإسلامِ دِيناً ، وبمُحَمَّدٍ رَسُولًا ، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ** » فعجب لها أبو سعيد ، فقال : أَعِدْهَا علىَّ يارَسولَ الله ، فَفَعَل ، ثم قالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **وأُخرَى يَرْفَعُ اللهُ بهَا العَبْدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ فى الجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ** » ، قال : وما هى يارسول الله ؟ ، قال : « **الجِهَادُ فى سَبِيلِ الله** » .

وقال : « **مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فى سَبِيلِ الله ، دَعَاهُ خَزَنَةُ الجَنَّةِ ، كُلُّ خَزَنَةِ بابٍ ، أىْ : هَلُمَّ ، فمنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ ، دُعِىَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ ، دُعِى مِنْ بَابِ الجِهَادِ ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ ، دُعىَ مِنْ بَابِ الصدَقَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهلِ الصِّيَامِ ، دُعىَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ** » ، فقال أبو بكر : بأبى أَنْتَ وأمى يارسولَ الله ، مَا عَلَى مَنْ دُعِى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَاب مِنْ ضرورةٍ ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوابِ كُلِّهَا ؟ قال : « **نَعَمْ ، وأرجو أن تَكُونَ مِنْهُم** » .

وقال : « **مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فى سَبِيلِ الله ، فبِسَبْعمائةٍ ، ومَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَعَادَ مَرِيضاً أو أَمَاطَ الأَذَى عَنْ طَرِيقٍ ، فالحسنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، والصَّوْمُ جُنَّةٌ مالَمْ يَخرِقْهَا ، ومَنِ ابْتَلَاه الله فى جَسَدِهِ فَهُو لَهُ حِطَّةٌ** » .

وذكر ابنُ ماجه [12]عنه : « **مَنْ أَرْسَلَ بِنَفَقَةٍ فى سَبِيلِ الله ، وَأَقَامَ فى بَيْتِهِ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمائَةِ درهَمٍ ، وَمَنْ غزا بِنَفْسِهِ فى سَبِيلِ الله ، وَأَنْفَق فى وَجْهِهِ ذَلكَ ، فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَم سَبْعُمائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ** » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

---

(١١) هو أبو سعيد الخدرى سعد بن مالك الأنصارى الخزرجى المدنى كان من علماء الصحابة ، شهد بيعة الشجرة ، مات سنة ٧٤ هـ

(١٢) هو أبو عبدالله محمد بن يزيد الربعى مولاهم القزوينى الحافظ صاحب كتاب السنن والتفسير ثقة كبير متفق عليه ، محتج به ، له معرفة بالحديث مات سنة ٢٨٣ هـ

وقال : « مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَماهُ فى سَبيلِ الله حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ » .

وقال : « لَا يَجْتَمعُ شُحٌ وإيمانٌ فى قَلب رَجُلٍ واحِدٍ ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبارٌ فى سَبِيلِ الله وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فى وَجْهِ عَبْدٍ » ، وفى لَفظ : « فى قَلْبِ عَبْدٍ » وفى لفظ : « فى جَوْفِ امرئٍ » ، وفى لفظ « فى مَنْخَرَىْ مُسْلِمٍ » .

وذكر الإمام أحمد رحمه الله تعالى عنه ﷺ : « مَنِ اغْبَرَّتْ قَدمَاهُ فى سَبيل الله سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، فَهُمَا حَرَامٌ عَلى النَّارِ » .

وذكر عنه أيضاً أنّه قال : « لَا يَجْمعُ الله فى جَوفِ رجل غُبارًا فى سَبِيلِ الله ودُخَانَ جَهَنَّمَ ، وَمَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فى سَبِيلِ الله ، حَرَّمَ الله سَائِرَ جَسَدِهِ على النَّار ، ومَنْ صَامَ يَومًا فى سَبيل الله ، بَاعَدَ الله عَنْهُ النَّارَ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ للرّاكِبِ المُستعْجِل ، ومَنْ جُرِحَ جِرَاحَةً فى سَبِيلِ الله ، خُتِمَ لَهُ بِخَاتَم الشُّهَدَاءِ ، لَهُ نُورٌ يَومَ القِيامَةِ لَوْنُها لَوْنُ الزَّعفَرَانِ ، وريحُها ريحُ المسك ، يَعْرِفُه بِهَا الأَوَّلُونَ والآخرُون ، ويَقُولُونَ : فُلانٌ عَلَيْهِ طَابعُ الشُّهَدَاءِ ، وَمَنْ قاتَلَ فى سبيل الله فُوَاقَ نَاقَةٍ ، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ » .

وذكر ابن ماجه عنه : « مَنْ رَاحَ رَوْحَةً فى سَبِيلِ الله ، كَانَ لَه بِمِثْلِ مَا أَصَابَهُ مِنَ الغُبَارِ مِسْكًا يَوْمَ القِيَامَةِ » .

وذكر أحمد ــ رحمه الله ــ عنه : « مَا خَالَطَ قَلْبَ امرئٍ رَهَجٌ فى سبِيلِ الله ، إِلَّا حَرَّمَ الله عَلَيهِ النَّارَ » .

وقال : « رِبَاطُ يومٍ فى سَبِيلِ الله خَيْرٌ من الدُّنْيَا وَمَا عَلَيهَا » .

وقال : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ ، جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الذى كَانَ يَعْمَلُهُ ، وأُجْرِىَ عَلَيْهِ رِزْقُه وَأَمِنَ الفَتَّانَ » .

وقال : « **كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ ، إلاَّ الذى مَاتَ مُرَابِطاً فى سَبِيلِ الله ؛ فَإنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، ويُؤَمَّنُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ** » .

وقال : « **رِبَاطُ يَوْمٍ فى سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ المَنَازِلِ** » .

وذكر ابنُ ماجه عنه : « **مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً فى سَبِيلِ الله ، كَانَتْ لَهُ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا** » .

وقال : « **مُقَامُ أَحَدِكُم فى سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ فى أَهْلِهِ سِتِّينَ سَنَةً ، أَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَتَدْخُلُوا الجَنَّةَ ، جَاهِدُوا فى سَبِيلِ الله ، مَنْ قَاتَلَ فى سَبِيلِ الله فُوَاقَ نَاقَةٍ ، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ** » .

وذكر أحمد عنه : « **مَنْ رَابَطَ فى شَىْءٍ مِنْ سَوَاحِلِ المُسْلِمينَ ثَلاَثَةَ أَيَّام ، أَجْزَأَت عَنْهُ رِبَاطَ سَنَةٍ** » .

وذُكِرَ عنه أيضاً : « **حَرَسُ لَيْلَةٍ فى سَبِيل الله أفضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا ، ويُصَامُ نَهَارُهَا** » .

وقال : « **حَرُمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ دَمَعَتْ أَوْ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله ، وَحَرُمَتِ النَّارُ على عَينٍ سَهِرَتْ فى سَبِيلِ الله** » .

وذكر أحمد عنه : « **مَنْ حَرَسَ مِنْ وراءِ المُسْلِمِينَ فى سَبِيلِ الله مُتَطَوِّعًا لَا يَأْخُذُهُ سُلْطَانٌ ، لَمْ يَرَ النَّار بعَينَيْهِ إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَم ، فإنَّ الله يَقُولُ** : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ » . [مريم : ٧١] .

وقال لرجل حَرَسَ المسلمين ليلةً فى سفرهم ، مِنْ أَوَّلِها إلى الصباح ، عَلَى ظَهْر فرسه لم يَنزِلْ إلا لصلاةٍ أو قَضاءِ حَاجَةٍ : « **قَدْ أَوْجَبْتَ فَلَا عَلَيْكَ أَلَّا تَعْمَلَ بَعْدَهَا** » .

وقال : « **مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فى سَبِيلِ الله ، فَلَهُ دَرَجَةٌ فى الجَنَّةِ** » .

وقال : « **مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فى سَبِيلِ الله ، فَهُوَ عِدْلُ مُحَرَّرٍ ، وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً**

فى سَبِيلِ الله ، كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ القِيامَةِ » ، وعند النسائى تفسير الدرجة بمائة عام .

وقَالَ : « إنّ الله يُدخِلُ بالسَّهْمِ الوَاحِدِ الجَنَّةَ : صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فى صَنْعَتِهِ الخَيْرَ ، والمُمِدَّ بِهِ ، والرَّامِى بِهِ ، وارْمُوا واركَبُوا ، وأَنْ تَرْمُوا أحَبُّ إليَّ مِنْ أن تَرْكَبُوا ، وكُلُّ شَىءٍ يَلْهُو به الرجلُ فباطلٌ إلّا رَمْيَهُ بقوسه ، أو تأديبه فرسَه ، وملاعبته امرأته ، ومَنْ علّمهُ الله الرَّمىَ ، فتركه رغبةً عنه ، فنِعْمَةٌ كفرها » رواه أحمد وأهل السنن ، وعند ابن ماجه : « مَنْ تَعَلَّم الرَّمى ثُمَّ تركَهُ ، فَقَد عَصَانِى » .

وذكر أحمد عنه أنّ رجلًا قال له : أوصِنِى ، فَقَالَ : « أوصيكَ بتَقْوى الله ، فإنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَىءٍ ، وَعَلَيْكَ بالجهَادِ ، فَإنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإسْلَام ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ الله وَتِلَاوَةِ القُرْآنِ ، فَإِنَّهُ رُوحُكَ فى السَّمَاءِ ، وَذِكْرٌ لَكَ فى الأرض » ، وقال : « ذِرْوَةُ سَنَامِ الإسْلَام الجِهَادُ » .

وقال : « ثَلَاثَةٌ حَقٌ على الله عَونُهُمْ : المُجَاهِدُ فى سَبيل الله ، وَالمُكَاتَبُ الذى يريدُ الأَدَاءَ ، والنَّاكحُ الذى يُرِيدُ العَفَافَ » .

وقال : « من مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّث بِهِ نَفْسَهُ ، مَاتَ عَلى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ » .

وذكر أبو داود عنه : « مَنْ لَمْ يَغْزُ ، أوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا ، أوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فى أَهْلِهِ بخَيْرٍ ، أَصَابَهُ الله بقَارِعَةٍ قَبْلَ يَومِ القِيَامَةِ » .

وَقَالَ : « إذَا ضَنَّ النَّاسُ بالدِّينَار والدِّرْهم ، وتَبَايَعُوا بالعِينَةِ ، واتَّبَعُوا أَذْنَابَ البَقَر ، وتَركُوا الجهَاد فى سَبيل الله ، أنْزَلَ الله بهِمْ بَلَاءً ، فلم يَرْفَعْهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُراجِعُوا دِينَهُم » .

وذكر ابن ماجه عنه : « مَنْ لَقِيَ الله عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَيْسَ لَهُ أَثَرٌ فى سَبِيلِ الله ، لَقِى الله ، وفِيهِ ثُلْمَة » .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ،

وفسر أبو أيوب الأنصارى الإلقاء باليد إلى التهلكة بترك الجهاد .

وصحَّ عنه ﷺ : « **إنَّ أبوابَ الجنَّةِ تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ** » .

وصحَّ عنه : « **مَنْ قاتَلَ لِتكُونَ كلمةُ اللهِ هى العُليا ، فهُوَ فى سبيلِ اللهِ** » .

وصحَّ عنه : « **إنَّ النارَ أوَّلُ ما تُسعَّرُ بالعَالِمِ والمُنفِقِ والمَقْتُولِ فى الجِهادِ إذا فَعَلُوا ذلِكَ لِيُقَالَ** » .

وصَحَّ عنه : « **أنَّ مَنْ جاهَدَ يَبْتغى عَرَضَ الدُّنيَا ، فلا أجْرَ لَهُ** » .

وصحَّ عنه أنه قال لعبدِ الله بن عمرو : « **إنْ قاتَلْتَ صابِرًا مُحْتَسِبًا ، بَعَثَكَ اللهُ صابِراً مُحْتسبًا ، وإنْ قاتَلْتَ مُرائياً مُكاثِراً ، بَعَثَكَ اللهُ مُرائِياً مُكاثِرًا ، ياعَبدَ اللهِ بن عَمْرو ، علَى أىِّ وَجْهٍ قاتَلْتَ أوْ قُتِلْتَ ، بَعَثَكَ اللهُ عَلى تِلْكَ الحَالِ** » .

فصــل

وَكَانَ يَسْتَحِبُّ القِتَالَ أوَّلَ النَّهَارِ ، كَمَا يَستَحِبُ الخُرُوجَ لِلسَّفَرِ أوَّلَه ، فإنْ لَمْ يُقَاتِلْ أوَّلَ النَّهارِ ، أخَّرَ القِتالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ ، وتَهُبَّ الرِّيَاحُ ، وَيَنْزِلَ النَّصْرُ .

فصــل

قَال : « **والَّذِى نَفْسى بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أحَدٌ فِى سَبِيلِ اللهِ — واللهُ أعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِى سَبِيلِهِ — إلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ اللَّوْنُ لونُ الدَّمِ ، والرِّيحُ رِيحُ المِسكِ** » .

وفى الترمذى عنه : « **لَيْسَ شَىْءٌ أحَبَّ إلَى اللهِ مِنْ قَطْرتَين أوْ أثَرَيْنِ ، قَطْرَةِ دَمْعَةٍ مِنْ خَشيَةِ اللهِ ، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ فى سبيلِ اللهِ ، وأمَّا الأثرانِ ، فأثَرٌ فى سَبيلِ اللهِ ، وأثَرٌ فى فَريضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ** » .

وصحَّ عنه أنه قال : « **مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ ، لَهُ عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَا يَسُرُّهُ أنْ**

يَرْجِعَ إلى الدُّنْيَا ، وَأنّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيها ، إلّا الشّهيد لما يَرى مِنْ فَضْل الشّهَادةِ ، فَإنّهُ يَسُرُّهُ أنْ يَرْجِعَ إلَى الدُّنْيَا ، فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخرَى » ، وفى لفظ : « فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ ؛ لِما يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ » .

وقالَ لِأمِّ حَارِثةَ بِنْتِ النُّعمان ، وَقَدْ قُتِلَ ابْنُهَا مَعَهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، فسألتهُ أَيْنَ هوَ ؟ قال : « إنّهُ فى الفِرْدَوْس الأعلَى » .

وقال : « إنّ أرْواحَ الشهداءِ فى جَوْفِ طَيْرٍ خُضر ، لَهَا قَناديلُ مُعلّقَةٌ بِالعَرشِ ، تَسرَحُ مِنَ الجنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثمَّ تأْوى إلى تِلْكَ القناديل ، فاطّلَعَ إليهِمْ رَبُّهمُ اطّلاعة ، فَقَالَ : هَلْ تَشتهُونَ شَيئاً ؟ فقَالُوا : أىَّ شَىْءٍ نَشتَهِى ، وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجنَّةِ حَيْثُ شئنَا ، ففعَلَ بهِمْ ذلكَ ثَلَاث مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتركُوا مِنْ أنْ يُسْألُوا ، قَالُوا : يَارَبِّ ، نُريدُ أنْ تَردَّ أرواحنَا فى أجسادنَا حَتّى نُقْتَلَ فِى سَبيلِكَ مَرَّةً أُخرَى ، فَلَمَّا رَأى أنْ لَيْس لَهُمْ حَاجَةٌ تُركُوا » .

وقال : « إنّ لِلشّهِيدِ عِنْدَ الله خِصالًا : أنْ يُغفَرَ لَهُ من أول دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ ، ويُرَى مقْعَده مِنَ الجَنَّةِ ، وَيُحَلّى حِلْيَةَ الإيمانِ ، ويزُوَّجَ مِن الحُورِ العينِ ، وَيُجَارَ مِنْ عَذاب القَبرِ ، ويَأْمَنَ مِنَ الفَزَعِ الأكْبَر ، وَيُوضَعَ عَلَى رَأسِهِ تَاجُ الوقَارِ ، الياقوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيزُوَّجَ اثنتَينِ وَسَبعِينَ مِنَ الحُورِ العينِ ، وَيُشَفَعَ فى سَبْعينَ إنْساناً مِنْ أقارِبهِ » ، ذكره أحمد ، وصححه الترمذى .

وقال لجابر : « ألَا أُخبِرُكَ مَا قَالَ الله لأبيكَ ؟ » ، قال : بَلَى ، قَالَ : « مَا كَلَّمَ الله أحدًا إلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كفاحًا ، فَقَالَ : يَاعبْدى تَمَنَّ عَلَىَّ أُعطكَ ، قَالَ : يَارَبّ ، تُحْيِينِى فَأُقتَلَ فِيكَ ثَانِيةً ، قال : إنَّهُ سَبَقَ مِنّى أنهم إليها لا يرجعون قال : يَارَبِّ ، فَأبلِغْ مَنْ وَرَائى ، فَأنزَل الله تعالى هذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [ال عمران : ١٦٩] .

وقَالَ : « لَمَّا أُصيبَ إخْوَانكُمْ بأحدٍ ، جَعَلَ الله أرْوَاحهُم فى أجْوافِ طَيْرٍ

خُضْرٍ ، تعرِدُ أنهارَ الجَنَّةِ ، وتأكُلُ مِنْ ثِمارِها ، وتَأْوِى إلَى قَنادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فى ظِلِّ العَرْشِ ، فلَمّا وجدُوا طِيبَ مأكلِهم ومَشربِهم وحُسْنَ مَقيلِهم ، قالُوا : يالَيْتَ إخْوانَنا يعْلَمونَ ما صَنَعَ اللهُ لنا ؛ لئَلّا يزهَدُوا فى الجِهادِ ، ولَا يَنْكُلوا عَنِ الحَرْبِ ، فقَالَ اللهُ : أنا أُبلِّغُهُم عَنْكُم ، فأنزل الله على رسوله هذه الآيات : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ﴾

وفى « المسند » مرفوعاً : « الشُّهَداءُ عَلَى بَارِقِ نَهْرٍ بِبَابِ الجَنَّةِ ، فى قُبَّةٍ خضْرَاء ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّة بُكْرَةً وَعَشِيَّةً » .

وقال : لَا تَجفُّ الأَرْضُ مِنْ دَمِ الشَّهِيدِ حتَّى يَبْتَدِرَهُ زَوجَتَاهُ ، كأَنَّهُمَا طَيْرَانِ أضَلَّتَا فَصيلَيْهِمَا بِبَرَاحٍ مِنَ الأَرْضِ ، بِيدِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنهُمَا حُلَّةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا »

وفى « المستدرك » والنسائى مرفوعاً : « لأنْ أُقْتَلَ فى سَبيلِ الله أحَبُّ إلَيَّ مِنْ أنْ يَكُونَ لِى أهْلُ المَدَرِ وَالوَبَرِ » .

وفيهما : « ما يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنَ القَتْلِ إلّا كَمَا يَجِدُ أحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ » .

وفى « السنن » : « يَشْفَعُ الشَّهِيدُ فى سَبْعِينَ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ » .

وفى « المسند » : « أفْضَلُ الشُّهَداء الّذِينَ إنْ يَلْقَوْا فى الصَّفِ لا يَلْفِتُونَ وجوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا ، أولئكَ يَتَلَبَّطُونَ فى الغُرَفِ العُلَى مِنَ الجَنَّةِ ، وَيَضْحَكُ إلَيْهِمْ رَبُّكَ ، وَإذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إلَى عَبْدٍ فى الدُّنْيَا ، فَلا حِسَابَ عَلَيْه » .

وفيه : « الشُّهَداءُ أربَعةٌ : رَجُلٌ مُؤمِنٌ جَيِّدُ الإيمان لَقِى العَدوَّ ، فصدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ ، فَذلِكَ الذى يَرْفعُ إلَيْهِ النَّاسُ أعناقهُم ، ورفع رَسُولُ الله ﷺ رَأْسَهُ حتَّى وَقَعَتْ قلَنسُوته ، ورَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإيمَان ، لقى العَدُوَّ فكَأنَّمَا يُضرَبُ جلدُهُ بِشَوكِ الطَّلْحِ أتَاهُ سَهْمُ غَرْبٍ ، فقتَلَه ، هُوَ فى الدَّرجَةِ الثَّانيَةِ ، وَرَجُلٌ مُؤمِنٌ جَيِّدُ الإيمانِ ، خَلَطَ عَمَلًا صَالحاً وَآخَرَ سَيِّئاً لقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ ، فَذَاكَ فى الدَّرجَةِ الثَّالِثةِ ، وَرَجُلٌ مُؤمِنٌ أسْرَفَ عَلَى نَفسِهِ إسْرافاً كثِيراً لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ ، فَذلِكَ فى الدَّرجَةِ الرَّابعَةِ » .

وفى « المسند » و « صحيح ابن حبان » : « **القَتْلَى ثَلَاثَةٌ : رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَاهَدَ بِمالِهِ ونفسهِ فى سَبيلِ اللهِ حَتَّى إذا لَقى العَدُوَّ قَاتَلَهُم حَتَّى يُقتَلَ ، فَذَاكَ الشَّهِيدُ المُمتحَنُ فى خَيْمَةِ اللهِ تَحْتَ عَرْشِهِ ، لَا يَفْضُلُهُ النَّبِيونَ إلَّا بِدَرجَةِ النُّبوةِ ، وَرَجُلٌ مُؤْمِن فَرقَ على نفسِهِ مِنَ الذُّنوبِ وَالخَطَايا ، جاهد بنفسِهِ وَمَالِهِ فى سَبِيلِ اللهِ حَتَّى إذَا لَقِيَ العَدُوَّ ، قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ ، فَتِلْكَ مُمَصمِصَةٌ مَحَتْ ذُنُوبَهُ وَخَطايَاهُ ، إنَّ السَّيْفَ مَحَّاءُ الخَطايَا ، وأُدْخِلَ مِنْ أيِّ أبْوَابِ الجَنَّةِ شَاءَ ، فَإِنَّ لَهَا ثَمَانِيةَ أَبْوَابٍ ، وَلِجَهنَّم سَبْعَةُ أبْوابٍ ، وَبعضهَا أفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ ، وَرَجُلٌ مُنَافِقٌ جَاهَدَ بنَفسِهِ وَمَالِهِ ، حَتَّى إذَا لَقِيَ العَدُوَّ ، قَاتَلَ فى سبيلِ اللهِ حَتَّى يُقتَلَ ، فإنَّ ذَلِكَ فى النَّارِ ، إنَّ السَّيْفَ لَا يَمْحُو النِّفَاقَ** » .

وصحّ عنه : « **أنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ كَافِرٌ وَقَاتِله فى النّارِ أبدًا** »

وسئل أيُّ الجِهَاد أفْضَلُ ؟ فَقَالَ : « **مَنْ جَاهَدَ المُشْرِكِينَ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ** » ، قيل : فَأَيُّ القَتْل أفْضَلُ ؟ ، قال : « **مَنْ أُهْرِيقَ دَمُهُ ، وعُقِرَ جَوَادُهُ فى سَبيلِ اللهِ** » .

وفى سنن ابن ماجه : « **إنَّ مِنْ أعظَمِ الجِهَادِ كَلِمَة عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائر** » وهو لأحمد والنسائى مرسلًا .

وصحَّ عنه : « **أنَّهُ لا تَزَالُ طَايِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ يُقَاتِلُونَ عَلى الحَقِّ ، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُمْ ، ولا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعةُ** » ، وفى لفظ : « **حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ المَسِيحَ الدَّجالَ** » .

فصـــل

وكان النبيُّ ﷺ يُبايُع أصحَابَه فى الحرب على ألا يفرُّوا ، وربَّما بايعهم على الموت ، وبايعهم على الجهاد ، كما بايعهم على الإسلام ، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح ، وبايَعَهُم على التوحيد ، والتزامِ طاعةِ الله ورسوله ، وبايع نفراً من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً .

وكانَ السَّوطُ يَسْقُط من يد أحدهم ، فينزل عن دابته ، فيأخُذه ، ولا يَقول لأحدٍ : نَاولني إياه .

وكان يُشاور أصحابه فى أمر الجهاد ، وأمر العدو ، وتخير المنازل ، وفى « **المستدرك** » عن أبى هريرة : ما رأيت أحداً أكثر مشورةً لأصحابه من رسول **الله صلَّى الله عليه وسلم** .

وكان يتخلَّف فى ساقتهم فى المسير ، فيُزجى الضعيف ، ويُردِفُ المنقطع ، وكان أرفق الناس بهم فى المسير .

وكان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها ، فيقول مثلًا إذا أراد غزوة حنين : « **كيف طريقُ نجد ومياهُها وَمن بها من العدوِّ** » ، ونحو ذلك .

وكان يقول : « **الحَرْبُ خَدْعَةٌ** » .

وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوِّه ، ويُطلِعُ الطلائعَ ، ويبيِّتُ الحرسَ .

وكان إذا لقى عدوَّه وقف ودعا ، واستنصر الله ، وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله ، وخفضوا أصواتهم .

وكان يرتِّبُ الجيش والمقاتلة ، ويجعلُ فى كل جنبةٍ كُفْئاً لها ، وكان يُبارِز بين يديه بأمره ، وكان يَلْبس للحرب عُدَّته ، وربما ظاهر بين دِرعَين ، وكان له الألويةُ والرايات .

وكان إذا ظهر على قوم ، أقام بعرْصَتِهم ثلاثاً ، ثم قفل .

وكان إذا أراد أن يُغير ، انتظر ، فإن سمع فى الحيِّ مؤذناً ، لم يُغِرْ وإلا أغارَ . وكان ربما بيَّت عدوَّهُ ، وربَّما فاجأهم نهاراً .

وكان يحب الخروج يوم الخميس بكرةَ النهار ، وكان العسكرُ إذا نزل انضمَّ بعضه إلى بعض حتى لو بُسطَ عليهم كساء لعمهم .

وكان يرتب الصفوف ويُعَبِّهم عند القتال بيده ، ويقول : « **تقدم يافلان ، تأخر يافلان** » .

وكان يستحب للرجُلِ منهم أن يُقاتل تحت راية قومه .

وكان إذا لَقِى العدو ، قال : « **اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَاب ، ومُجْرِىَ السَّحَاب . وهَازِمَ الأحزَاب ، اهْزِمهُم ، وانصُرنا عليهم** » ، وربما قال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ● بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٥ — ٤٦]

وكان يقُولُ : « **اللَّهمَّ أنْزِلْ نَصْرَكَ** » ، وكان يقول : « **اللهمَّ أنْتَ عَضُدِى وأنتَ نصِيرِى ، وَبكَ أُقَاتِلُ** » . وكان إذا اشتد له بأسٌ ، وحَمِى الحرب ، وقصده العدو ، يُعلِمُ بنفسه ويقول :

أَنَـــا النَّبِـــيُّ لَا كَذِبْ   أَنَا ابْــنُ عَبْــدِ المُطَّــلِبْ

وكان الناس إذا اشتد الحرب اتقوا به ﷺ ، وكان أقربهم إلى العدو .

وكان يجعل لأصحابه شعاراً فى الحرب يُعرفون به إذا تكلموا .

وكَان شِعارُهم مرَّة : « **أَمِتْ أَمِتْ** » ومرةً : « **يَامنصور** » ومرة : « **حم لَا يُنْصَرُونَ** » .

وكان يلبس الدرع والخُوذة ، ويتقلد السيف ، ويحمل الرمح والقوس العربية ، وكان يتترَّس بالترس ، وكان يُحب الخُيلاء فى الحرب وقال : « **إنَّ مِنها مَا يُحِبُّهُ الله ، ومِنْهَا ما يُبْغِضُهُ الله ، فأمَّا الخُيَلَاء التى يُحبُّها الله ، فاختيال الرَّجُل بنفسه عند اللقَاء ، واختيالُهُ عند الصَّدَقَةِ ، وَأَمَّا التى يُبغِضُ الله عزَّ وجَلَّ ، فاختيالُهُ فى البَغى والفَخْرِ** » .

وقاتل مرة بالمنجنيق نصبه على أهل الطائف ، وكان ينهى عن قتل النساء والولدان ، وكان ينظر فى المقاتلةِ ، فمن رآه أنْبَتَ ، قتلهُ ، ومن لم يُنْبِتْ ، استحياه .

وكان إذا بعث سرية يُوصيهم بتقوى الله ، ويقول : « **سيرُوا بسم الله وفى سَبِيل الله ، وقَاتِلوا مَنْ كَفَرَ بالله ، ولَا تُمَثِّلوا ، ولا تَغْدُرُوا ، ولا تَقْتُلوا وليدًا** » .

وكان ينهى عن السفَرِ بالقُرآن إلى أرض العدو .

وكان يأمر أميرَ سريته أن يدعو عدوَّه قبل القِتال إمَّا إلى الإسلامِ والهِجرةِ ، أو إلى الإسلام دون الهجرة ، ويكونون كأعراب المسلمين ، ليس لهم فى الفىء نصيب ، أو بذل الجِزية ، فإن هُمْ أجابُوا إليه ، قَبِلَ منهم ، وإلا استعان بالله وقاتلهم .

وكان إذا ظفر بعدوه ، أمر منادياً ، فجمع الغنائم كلَّها ، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها ، ثم أخرج خُمُسَ الباق ، فوضعه حيث أراه الله ، وأمره به من مصالح الإسلام ، ثم يَرْضَخُ من الباق لمن لاسهم له من النساء والصِّبيانِ والعبيد ، ثم قسم الباق بالسَّويَّة بين الجيش ، للفارس ثلاثةُ أسهم : سهمٌ له ، وسهمانِ لفرسه ، وللراجل سهم ، هذا هو الصحيح الثابت عنه .

وكان يُنَفِّلُ من صُلب الغنيمة بحسب مايراه من المصلحة ، وقيل : بل كان النَّفَلُ من الخمس ، وقيل ، وهو أضعف الأقوال : بل كان من خُمُسِ الخُمُسِ . وجمع لسلمةَ بن الأكوع فى بعض مغازيه بين سهم الراجل والفارس ، فأعطاه أربعةَ أسهم لِعظم غنائهِ فى تلك الغزوة .

وكان يُسَوِّى الضعيف والقوى فى القِسمة ماعدا النفل .

وكان إذا أغار فى أرض العدو ، بعث سرية بين يديه ، فما غَنِمتْ ، أخرج خُمُسَهُ ، ونَفَّلَهَا رُبُعَ الباق ، وقسم الباق بينها وبين سائر الجيش ، وإذا رجع ، فعل ذلك ، ونفَّلها الثلث ، ومع ذلك فكان يكره النَّفَلَ ، ويقول : « **لِيَرُدَّ قَوِىُّ المؤمِنينَ على ضَعِيفِهِمْ** » .

وكانَ له ﷺ سَهْمٌ من الغنيمة يُدْعَى الصَّفِىَّ ، إن شاء عبداً ، وإن شاء أمةً ، وإن شاءَ فرساً ، يختاره قبل الخمس .

قالت عائشةُ : وكَانَت صَفِيَّةُ مِنَ الصَّفِىِّ رواه أبو داود . ولهذا جاء فى كتابه إلى بنى زهير بن أُقَيْش : « **إنَّكُمْ إنْ شَهِدْتُم أنْ لا إلهَ إلَّا الله ، وأنَّ محمَّدًا رسُولُ الله ، وأقَمْتُمُ الصَّلاة ، وآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وأدَّيْتُمُ الخُمُسَ مِنَ المَغْنَم وَسَهْم النَّبىِّ ﷺ ، وَسَهْمَ الصَّفِىِّ ، أنْتُمْ آمِنونَ بأَمَانِ الله وَرَسُولِهِ** » .

وكان سيفُهُ ذو الفقار من الصَّفِيِّ .

وكان يُسهم لمن غاب عن الوقعة لمصلحة المسلمين ، كما أسهم لعثمان سهمه من بدر ، ولم يحضرها لمكان تمريضه لامرأته رُقيةَ ابنة رسول الله ﷺ ، فقال : « **إنَّ عُثمَان انْطلق فى حَاجَةِ الله وحاجة رسولِهِ** » فضرب له سَهمَهُ وأجرَهُ .

وكانوا يشترون معه فى الغزو ويبيعون ، وهو يراهم ولا ينهاهم ، وأخبره رجل أنَّه ربحَ ربحاً لم يربح أحدٌ مثله ، فقال : « **ما هو ؟** » ، قال : مازلت أبيع وأبتاعُ حتى ربحْتُ ثلاثمائة أُوقيَّة ، فقال : « **أنا أنَبِّئُكَ بخير رجُلٍ رَبِحَ** » ، قال : ماهو يارسول الله ؟ ، قال : « **ركعتين بعد الصلاة** » .

وكانوا يستأجرون الأجراء للغزو على نوعين ، أحدُهما : أن يخرُج الرجل ، ويستأجر مَنْ يَخْدِمه فى سفره . والثانى : أن يستأجر من ماله من يخرج فى الجهاد ، ويسمون ذلك الجعائل ، وفيها قال النبى ﷺ : « **للغازى أجرُه ، وللجاعِلِ أجره وأجر الغازى** » .

وكانوا يتشاركون فى الغنيمة على نوعين أيضاً ، أحدهما : شركة الأبدان ، والثانى : أن يدفع الرَّجُل بعيره إلى الرجل أو فرسه يغزُو عليه على النصف مما يغنُم ، حتى ربما اقتسما السَّهم ، فأصاب أحدهما قِدْحَهُ ، والآخر نصلَه وريشه .

وقال ابن مسعود : اشتركتُ أنا وعمارٌ وسعدٌ فيما نُصِيبُ يوم بدرٍ ، فجاء سعد بأسيرين ، ولم أجىء أنا وَعمَّار بشىءٍ .

وكان يبعث بالسرية فُرساناً تارة ، ورجالًا أُخرى ، وكان لا يُسهم لمن قَدِمَ من المَدَدِ بعد الفتح .

فصــل

وكان يُعطى سهم ذى القُربى فى بنى هاشم وبنى المطلب دون إخوتهم من بنى عبد شمس وبنى نوفل ، وقال : « **إنَّمَا بَنُو المُطَّلِبِ وبَنُو هاشِمٍ شَىء واحِدٌ** » وَشَبَّكَ بين أصابعِهِ ، وقال : « **إنَّهُم لَمْ يُفَارِقُونا فى جَاهِلِيةٍ ولا إسلَام** » .

فصــل

وكان المسلمون يُصيبونَ معه فى مغازيهم العَسَلَ والعِنَبَ والطعام فيأكلونه ، ولا يرفعونه فى المغانم ، قال ابن عمر : إنَّ جَيشاً غَنِمُوا فى زَمَانِ رَسُولِ الله ﷺ طَعاماً وعَسَلا ، ولم يُؤخَذْ مِنهم الخُمُسُ . ذكره أبو داود .

وانفرد عبد الله ابن المغفل [١٣] يوم خيبر بجِرَاب شَحْمٍ ، وقال : لا أُعْطى اليومَ أحداً من هذا شيئاً ، فسمعَهُ رسول الله ﷺ ، فَتبسَّم ولم يَقُلْ له شيئاً .

وقيل لابن أبى أوفى : كُنتُم تُخمِّسونَ الطعام فى عهد رسول الله ﷺ ؟ ، فقال : أصبنا طعاماً يوم خيبر ، وكان الرجلُ يجيء ، فيأخذُ منه مِقدَارَ مايكفيه ، ثم ينصرف » .

وقال بعض الصحابة : « **كنا نأكُلُ الجَوزَ فى الغَزوِ ، ولا نَقْسِمُه حتى إنْ كُنَّا لنَرْجعُ إلى رِحالِنا وأجربَتُنا منه مملوءة** .

فصــل

وكان ينهى فى مغازيه عن النُّهبَة والمُثلَةِ وقال : « **مَنِ انتهَبَ نُهْبَةً فَلَيسَ مِنَّا** » « **وأمرَ بالقُدُورِ التى طُبِخَتْ مِن النُّهبى فأُكفِئَتْ** » .

وذكر أبو داود عن رجل من الأنصار قال : خَرَجْنَا مع رسول الله ﷺ فى سفرٍ ، فأصابَ النَّاس حاجَةٌ شديدةٌ وجَهْدٌ ، وأصابُوا غنماً ، فانتهبُوها ، وإنَّ قُدورنا لتغلى إذ جاءَ رَسُولُ الله ﷺ يمشى على قوسه ، فأكفأ قُدورنَا بقوسِهِ ، ثُمَّ جعل يُرمِلُ اللحمَ بالتراب ، ثم قال : « **إنَّ النُّهْبَةَ لَيْسَتْ بأحَلَّ من المَيْتَةِ ، أو إنَّ الميتَةَ ليسَتْ بأحلَّ مِنَ النُّهْبَةِ** » .

وكان ينهى أن يركب الرجل دابةً من الفيء حتى إذا أعجفها ، ردَّهَا فيه ، وأن

---

(١٣) هو عبد الله بن مغفل بن عبيد بن نهم بن عفيف بن دؤب المزنى أبو عبد الرحمن ثقة وهو من أصحاب الشجرة مات سنة ٦١ هـ وقيل سنة ٥٧ هـ .

يَلْبس الرجُل ثوباً من الفيء حتى إذا أخلقه ، ردَّه فيه ، ولم يمنع من الانتفاع به حال الحرب .

فصـــل

وكان يُشدِّدُ فى الغُلول جدًّا ، ويقول : « **هُوَ عارٌ ونارٌ وشَنَارٌ على أهلِهِ يَومَ القيامة** » .

ولما أُصيبَ غلامهُ مِدْعمٌ قالوا : هنيئاً له الجنَّةُ ، قال : « **كلَّا والذى نَفْسى بيدِهِ ، إنَّ الشَّمْلَةَ التى أَخذَها يَوْمَ خَيبرَ من الغَنَائِم ، لم تُصبهَا المَقَاسِمُ ، لَتَشتَعِلُ عَلَيْهِ ناراً** » ، فجاء رجل بشراكٍ أو شِرَاكَيْنِ لما سمعَ ذلك ، فقال : « **شِرَاكٌ أو شِرَاكَانِ من نارٍ** » .

وقال أبو هريرة : قَامَ فينا رسُولُ الله ﷺ فَذَكَرَ الغُلُولَ وعَظَّمهُ ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ ، فَقَال : « **لا أُلْفِيَنَّ أحَدَكُم يوم القيامَةِ عَلَى رَقَبتهِ شاةٌ لهَا ثُغَاءٌ ، عَلى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ له حَمْحَمَةٌ يَقُولُ : يارَسُولَ الله ، أغِثْنى ، فأَقُولُ : لا أَمْلكُ لَكَ شَيْئاً ، قَدْ أَبْلَغْتُكَ ، عَلَى رَقَبَته صَامتٌ ، فيقُولُ : يَارسولَ الله ، أغِثْنى ، فأقُولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله شَيْئاً ، قَدْ أَبْلَغْتُكَ ، عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ ، فَيَقُولُ : يَارَسُولَ الله ، أغِثْنى ، فأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ** » .

وقال لمن كان على ثَقَلِهِ وقد مَات : « **هُو فى النَّار** » ، فذهَبُوا يَنْظُرونَ فوجدوا عباءَةً قد غَلَّهَا .

وقالوا فى بعض غَزواتهم : فُلانٌ شَهيدٌ ، وفُلانٌ شهيدٌ ، حتى مرُّوا على رجُلٍ ، فَقَالُوا : وفُلانٌ شهيدٌ ، فقال : « **كَلَّا ، إنِّى رأَيْتُهُ فى النَّارِ فى بُرْدَةٍ غَلَّهَا أو عَبَاءَة** » ، ثمَّ قال رسول الله ﷺ : « **اذْهَبْ يابنَ الخطابِ ، اذْهَبْ فَنَادِ فى النَّاس : إنَّهُ لا يدْخُلُ الجَنَّةَ إلَّا المؤمِنُونَ** » .

وتُوفى رجلٌ يومَ خيبر ، فذكرُوا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « **صَلُّوا عَلى صَاحِبِكُم** » فتَغَيَّرتْ وجُوهُ الناسِ لذلكَ ، فقال : « **إنَّ صَاحِبَكُم غَلَّ فى سبيلِ الله شيْئاً** » ، ففتَّشُوا متاعَه ، فوجدوا خَرزاً من خرزِ يَهودٍ لا يُساوى دِرْهَمَيْنِ .

وكان إذا أصاب غَنيمَةً أمَرَ بِلالًا ، فنادَى فى الناس ، فيجيؤونَ بِغَنَائمهم ، فَيُخَمِّسُه ، ويَقْسمُه ، فجاء رجلٌ بعد ذلك بزِمَامٍ من شَعر ، فَقَالَ رسُولُ الله ﷺ : « **سَمِعْتَ بِلالًا نادَى ثَلاثًا ؟** » ، قالَ : نَعَمْ ، قال : « **فَمَا مَنَعَكَ أنْ تَجِيءَ به ؟** » ، فاعتذر ، فقال : « **كُنْ أنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَومَ القيامَةِ ، فَلَنْ أقْبَلَهُ مِنكَ** » (*).

فصــل

وأمر بتحريق متاع الغَالِّ وضربِهِ ، وحَرَقَهُ الخليفتانِ الراشدانِ بعده ، فقيل : هذا منسوخٌ بسائِرِ الأحاديثِ التى ذُكِرَتْ ، فإنه لم يجىء التحريقُ فى شىءٍ منها ، وقيل ـ وهو الصواب ـ : إنَّ هذَا مِن باب التعزِيرِ ، والعقوباتِ المالية الراجعةِ إلى اجتهاد الأئمة بحسَبِ المصلحة ، فإنه حَرَقَ وتَرَكَ ، وكذلِكَ خلفاؤهُ من بعده ، ونظيرُ هذا قتلُ شارِب الخمر فى الثَّالثة أو الرابعة ، فليس بحَدٍّ ولا منسوخ ، وإنما هو تعزيرٌ يتعلّق باجتهاد الإمام .

فصــل
فى هـديه صلّى الله عليه وسلّم
فى الأســـــارى

كان يَمُنُّ على بعضهم ، ويقتُلُ بعضَهُم ، ويُفادى بعضهم بالمال ، وبعضهم بأسرى المسلمينَ ، وقد فعل ذلك كلّه بحَسَبِ المصلحة ، ففادى أسارى بدرٍ بمال ، وقَالَ : « **لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا ، ثُمَّ كَلَّمَنى فى هؤلاء النَّتْنَى ، لَتركْتُهُم له** » .

وهبط عليه فى صُلح الحديْبية ثمانون متسلِّحُونَ يُرِيدون غِرَّته ، فأسرهم ثم مَنَّ عليهم .

وأسَرَ ثُمامةَ أثال سيدَ بنى حَنيفَةَ ، فرَبَطه بسَارِيةِ المسجِدِ ، ثم أطلقه فأسلم .

(*) ينبغى النظر فى صحة هذا الحديث ؛ فليس من دأبه صلى الله عليه وسلم أن يردَّ المعتذر . الناشر .

واستشار الصحابة فى أسارى بدر ، فأشار عليه الصدّيق أن يأخُذَ منهم فدِيةً تكونُ لهم قوةً على عَدوِّهم ويُطلِقَهم ، لعلَّ الله أن يَهدِيهم إلى الإسلام ، وقال عمر : لا والله ، ما أرى الذى رأى أبُو بكر ،ولكن أرى أن تُمَكِّنَنا فنضربَ أعناقَهم ، فإنَّ هؤلاء أئمةُ الكفر وصناديدها ، فهَوِىَ رسول الله ﷺ ماقال أبو بكر ، ولم يَهْوَ ماقال عُمَرُ ، فلما كان من الغد ، أقبلَ عُمَرُ ، فإذا رسول الله ﷺ يَبكى هو وأبُو بكر ، فقال : يارَسولَ الله ! من أىِّ شىءٍ تبكى أنتَ وصاحبُكَ ، فإن وجدتُ بُكاء بَكَيتُ ، وإن لم أجدْ بكاء ، تباكَيتُ لبكائكما ؟ فَقَالَ رسولُ الله ﷺ : « **أبْكِى للذِى عَرَضَ علىَّ أصْحَابُك مِنْ أخذِهم الفِدَاءَ ، لَقَدْ عُرِضَ علىَّ عَذَابُهُم أدْنَى مِنْ هذهِ الشجرَة** ، **وأنْزَلَ الله** : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ » الآية [الأنفال : ٦٧] .

وقد تكلَّمَ النَّاسُ ، فى أىِّ الرأيين كان أصوَب ، فرجَّحتْ طائفةٌ قولَ عُمَرَ لهذا الحديث ، ورجَّحت طائفةٌ قولَ أبى بكر ، لاستقرار الأمر عليه ، وموافقتِهِ الكتابَ الذى سَبَقَ من الله بإحلالِ ذلك لهم ، ولموافقته الرحمة التى غلبتِ الغضبَ ، ولتشبيه النبىِّ ﷺ له فى ذلك بإبراهيم وعيسى ، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى ، ولحصول الخير العظيم الذى حصل بإسلام أكثر أولئكَ الأسْرى ، ولخروج مَنْ خرج من أصلابهم من المسلمين ، ولحصول القوة التى حصلت للمسلمين بالفِداء ، ولموافقةِ رسولِ الله ﷺ لأبى بكر أوَّلًا ، ولموافقة الله له آخرًا حيثُ استقر الأمرُ على رأيه ، ولِكمال نظر الصِّدِّيق ، فإنه رأى مايستقِرُّ عليه حُكْمُ الله آخِراً ، وغلَّب جانب الرحمةِ على جانبِ العُقُوبة .

قالوا : وأما بكاءُ النبىِّ ﷺ ، فإنَّما كان رحمةً لنزول العذاب لمن أراد بذلك عرض الدنيا ، ولم يُرِدْ ذَلكَ رسولُ الله ﷺ ، ولا أبو بكر ، وإن أرادَه بعضُ الصحابة ، فالفتنةُ كانت تَعُمُّ ولا تُصيبُ من أرادَ ذلك خاصة ، كما هُزِمَ العسكرُ يوم حُنَين بقول أحدهم : (**لَنْ نُغْلَبَ اليَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ**) ، وبإعجاب كثرتهم لمن أعجبته منهم ، فهزِم الجيش بذلك فتنة ومحنة ، ثم استقر الأمرُ على النصر والظفر ، والله أعلم .

واستأذنه الأنصارُ أن يترُكُوا للعباس عَمِّهِ فِدَاءَه ، فقالَ : « **لا تَدَعُوا مِنْهُ دِرْهَمًا** » .

واستوهب من سلمة بن الأكوع [14] جارية نَفَلَه إيَّاها أبو بكر فى بعض مغازيه ، فوهبها له ، فبعثَ بها إلى مكَّة ، ففدى بها ناساً من المسلمين ، وفدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل ، ورد سبى هوازن عليهم بعد القِسْمَةِ ، واستطابَ قلوبَ الغانمين ، فطيَّبوا له ، وعوَّض من لم يُطيب من ذلك بِكُلِّ إنسانٍ سِتَّ فرائض ، وقتل عُقبةَ بن أبى مُعيط من الأسرى ، وقتل النَّضَرَ بن الحارث لشدة عداوتِهما لله ورسوله .

وذكر الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان ناسٌ من الأسرى لم يَكُنْ لهم مال ، فجعلَ رسولُ الله ﷺ فداءَهم أن يُعلِّمُوا أولاد الأنصار الكِتابة ، وهذا يدل على جواز الفداء بالعمل ، كَمَا يجوز بالمال .

وكان هديه أن مَنْ أسلم قبل الأسر ، لم يُسترق ، وكانَ يسترق سَبْىَ العرب ، كَمَا يَستَرِقُّ غيرهم من أهل الكتاب ، وكان عند عائشة سبيَّةٌ منهم فقال : « **أعتِقِيها فإنَّها مِنْ ولَدِ إسمَاعيل** » .

وفى الطبرانى مرفوعاً : « **مَنْ كَانَ عَلَيْهِ رَقَبَةٌ مِنْ ولَدِ إسماعيل ، فَلْيَعْتِقْ مِنْ بَلْعَنْبَر** » .

ولما قسم سبايا بنى المُصْطَلِق ، وقعت جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحارث فى السَّبى لثابت ابن قيس بن شمَّاس ، فكاتبتْهُ على نفسها ، فَقَضَى رسُولُ الله ﷺ كِتَابَتَهَا وَتَزَوَّجَها ، فأُعْتِقَ بتَزَوُّجه إياها مائةً من أهلِ بَيتِ بنى المُصطَلِق إكراماً لصهرِ رسولِ الله ﷺ . وهى من صريح العرب ، ولم يكونوا يتوقَّفون فى وطء سبايا العرب على الإسلام ، بل كانوا يطؤونهن بعد الاستبراء ، وأباحَ اللّه لهم ذلك ، ولم

---

(١٤) هو سلمة بن عمرو بن الأكوع واسمه سنان بن عبدالله بن بشير بن يقظة الأسلمى أبو مسلم مات سنة ٧٤ هـ .

(١٥) هو أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمى الشامى ولد بعكا سنة ٢٦٠ هـ ومات ٣٦٠ هـ ، ثقة له عدة مصنفات .

يشترط الإسلام ، بل قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ [النساء : ٢٤] ، فأباح وَطءَ مِلكِ اليمين ، وإن كانت محصنة إذا انقضت عدتُها بالاستبراء ، وقال له سلمة بن الأكوع ، لما استوهبه الجارية الفزارية من السبى : والله يارسول الله ! لقد أعجبتنى ، وما كشفتُ لها ثوباً ، ولو كان وطؤها حراماً قبل الإسلام عندهم . لم يكن لهذا القول معنى ، ولم تكن قد أسلمت ، لأنه قد فَدَى بها ناساً من المسلمين بمكة ، والمسلِمُ لا يُفادى به ، وبالجملة فلا نَعرِفُ فى أثر واحِدٍ قطُّ اشتراط الإسلام منهم قولًا أو فعلًا فى وطء المسبية ، فالصوابُ الذى كان عليه هديُه وهديُ أصحابه استرقاقُ العرب ، ووطء إمائهن المسبيات بِملك اليمين من غير اشتراط الإسلام .

فصل

وكان ﷺ يمنعُ التفريقَ فى السَّبى بين الوالدة وولدها ، ويقول : « **مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالدَةٍ وولَدِها ، فرَّقَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أحبَّتِهِ يَومَ القِيامَة** » ، وكان يؤتى بالسبى فيعطى أهلَ البيت جميعاً كراهية أن يُفرَّق بينهم .

فصل
فى هديه فيمن جسَّ عليه

ثبت عنه أنه قتل جاسوساً من المشركين . وثبت عنه أنه لم يقتُل حاطباً ، وقد جَسَّ عليه ، واستأذنه عمرُ فى قتله فقال : « **وما يُدْريكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ على أهْلِ بدْرٍ فقال : اعْمَلُوا مَا شِئتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لكُم** » ، فاستدلَّ به من لايرى قتل المسلم الجاسوس ، كالشافعى ، وأحمد ، وأبى حنيفة رحمهم الله ، واستدل به مَنْ يرى قتله ، كمالك ، وابن عقيل من أصحاب أحمد ـ رحمه الله ـ وغيرهما ، قالوا : لأنه علل بعلةٍ مانعة من القتل منتفيةٍ فى غيره ، ولو كان الإسلام مانعاً من قتله ، لم يُعلَّل بأخصَّ منه ، لأن الحكم إذا عُلِّل بالأعم ، كان الأخص عديمَ التأثير ، وهذا أقوى . والله أعلم .

فصــل

وكان هديه ﷺ عِتقَ عبيدِ المشركين إذا خرجُوا إلى المسلمين وأسلموا ، ويقول : « **هُمْ عُتَقَاءُ الله عَزَّ وجَلّ** » .

وكان هديه أنّ من أسلم على شىء فى يده ، فهو له ، ولم ينظُرْ إلى سببه قبل الإسلام ، بل يُقِرُّه فى يده كما كان قبل الإسلام ، ولم يكن يُضمِّنُ المشركين إذا أسلموا ما أتلفُوه على المسلمين من نفس أو مال حالَ الحرب ولا قبلَه ، وعزم الصِّدِّيقُ على تضمين المحاربين من أهل الرِّدة دياتِ المسلمينَ وأموالهم ، فقال عمر : تلك دماءٌ أُصيبت فى سبيل الله ، وأجورُهم على الله ، ولا ديةَ لشهيد ، فاتفق الصحابةُ على ماقال عمر ، ولم يكن أيضاً يَرُدُّ على المسلمين أعيان أموالهم التى أخذها منهم الكفارُ قهرًا بعد إسلامهم ، بل كانوا يرونها بأيديهم ، ولا يتعرَّضون لها سواء فى ذلك العقار والمنقول ، هذا هديُه الذى لاشك فيه .

ولما فتح مكة ، قام إليه رجال من المهاجرين يسألونه أن يرد عليهم دورهم التى استولى عليها المشركون ، فلم يردَّ على واحد منهم داره ، وذلك لأنهم تركوها لله ، وخرجوا عنها ابتغاء مرضاته ، فأعاضهم عنها دوراً خيراً منها فى الجنة ، فليس لهم أن يرجِعوا فيما تركوه لله ، بل أبلغُ من ذلك أنه لم يُرخِّصْ للمهاجر أن يُقيم بمكة بعد نُسُكِه أكثرَ من ثلاثٍ ، لأنه قد ترك بلده لله ، وهاجر منه ، فليس له أن يعودَ يستوطنه ، ولهذا رثى لسعد بن خولة ، وسمَّاه بائساً أن ماتَ بمكة ، ودُفِنَ بها بعد هجرته منها .

فصــل

فى ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عز وجل

أوَّل ما أوحى إليه ربُّه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق ، وذلك أول نبوته ، فأمره أن يقرأ فى نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ● قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ١ ، ٢] فنبأه بقوله : (**اقرأ**) ، وأرسله

بـ (**ياأيُّهَا المُدَّثِّرُ**) ثم أمره أن ينذِرَ عشيرتَه الأقربين ، ثم أنذر قومَه ، ثم أنذرَ مَنْ حوْلَهُم من العرب ، ثم أنذر العربَ قاطبة ، ثم أنذر العالَمينَ ، فأقام بِضْعَ عشرة سنة بعد نبوته يُنْذرُ بالدعوة بغير قتال ولا جِزية ، ويؤمر بالكفِّ والصبر والصَّفح .

ثم أُذِنَ له فى الهجرة ، وأُذِنَ له فى القتال ، ثم أمره أن يُقاتِلَ من قاتله ، ويكُفَّ عمن اعتزله ولم يُقاتله ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكونَ الدِّينُ كُلُّه لله ، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهلُ صُلح وهُدنة ، وأهلُ حرب ، وأهلُ ذمة ، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يُوفى لهم به ماااستقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة ، نبذَ إليهم عهدهم ، ولم يُقاتِلهم حتى يُعْلمَهم بِنَقْضِ العهد ، وأُمِرَ أن يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت (**سورة براءة**) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها ، فأمره فيها أن يُقاتل عدوَّه من أهل الكتاب حتى يُعطوا الجزيَةَ ، أو يدخلوا فى الإسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغِلظة عليهم ، فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحُجَّةِ واللسان .

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عُهودهم إليهم ، وجعلَ أهلَ العهد فى ذلك ثلاثة أقسام : قسماً أمرهُ بقتالهم ، وهُم الذين نقضُوا عهده ، ولم يستقِيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد مُؤقّت لم ينقضوه ، ولم يُظاهِروا عليه ، فأمره أن يُتِمَّ لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يُحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يُؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسلخت قاتلهم ، وهى الأشهر الأربعة المذكورة فى قوله : ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢] وهى الحُرُمُ المذكورة فى قوله : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ٥] . فالحرم هاهنا : هى أشهر التسيير ، أولها يومُ الأذان ، وهو اليومُ العاشر من ذى الحِجة ، وهو يومُ الحجِّ الأكبر الذى وقع فيه التأذين بذلك ، وآخِرُها العاشر من ربيع الآخر ، وليست هى الأربعة المذكورة فى قوله : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة : ٣٦] فإن تلك

واحد فرد ، وثلاثة سرد : رجبٌ ، وذُو القَعدة ، وذو الحجة ، والمحَرَّمُ . ولم يسِرِ المشركين فى هذه الأربعة ، فإن هذا لا يُمكن ، لأنها غيرُ متوالية ، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يُقاتلهم ، فقتل الناقض لعهده ، وأجَّل مَنْ لا عهد له ، أو له عهد مطلق أربعة أشهر ، وأمره أن يُتمَّ للموفى بعهده عهدَه إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلُّهم ، ولم يُقيموا على كفرهم إلى مدتهم ، وضَرَبَ على أهل الذمة الجِزية .

فاستقر أمرُ الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهلِ ذمة ، ثم آلت حالُ أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمِن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب .

وأما سيرته فى المنافقين ، فإنه أُمِرَ أن يَقبل مِنهم علانيتَهم ، ويكِلَ سرائِرَهم إلى الله ، وأن يُجاهِدَهم بالعِلم والحُجَّة ، وأمره أن يُعرِضَ عنهم ، ويُغلِظَ عليهم ، وأن يَبْلُغَ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهاه أن يُصلِّيَ عليهم ، وأن يقومَ على قبورهم ، وأخبر أنه إن استغفر لهم ، فلن يغفر الله لهم ، فهذه سيرتُه فى أعدائه مِن الكفار والمنافقين .

فصل

وأما سيرتُه فى أوليائه وحزبه ، فأمرهُ أن يَصْبِرَ نفسَه مع الذين يدعون ربَّهم بالغداةِ والعشى يُريدون وجهه ، وألا تعدُوَ عيناه عنهم ، وأمره أن يعفوَ عنهم ، ويستغفِرَ لهم ، ويُشاوِرَهم فى الأمر ، وأن يُصلِّى عليهم .

وأمره بهجر من عصاهُ ، وتخلَّف عنه ، حتى يتوبَ ، ويُراجِعَ طاعته ، كما هجر الثلاثة الذين خُلِّفوا .

وأمره أن يُقيمَ الحدودَ على من أتى موجباتها منهم ، وأن يكونُوا عنده فى ذلك سواء : شَرِيفُهم ودنيئُهم .

وأمره فى دفع عدوِّه مِن شياطين الإنس ، بأن يدفع بالتى هى أحسن ، فيُقابل

إساءة من أساء إليه بالإحسان ، وجهلَه بالحِلم ، وظلمَه بالعفو ، وقطيعته بالصلة ، وأخبره أنه إن فعل ذلك ، عاد عدوه كأنه ولى حميم .

وأمره فى دفعه عدوه من شياطين الجن بالاستعاذة بالله منهم ، وجمع له هذين الأمرين فى ثلاثة مواضع من القرآن : فى (**سورة الأعراف**) و (**المؤمنين**) و (**سورة حم فصلت**) فقال فى سورة الأعراف : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ● وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩ — ٢٠٠] فأمره باتقاء شر الجاهلين بالإعراض عنهم ، وباتقاء شر الشيطان بالاستعاذة منه ، وجمع له فى هذه الآية مكارم الأخلاق والشيم كلها ؛ فإن ولىَّ الأمر له مع الرعية ثلاثة أحوال : فإنه لا بدَّ له من حقٍّ عليهم يلزمهم القيامُ به ، وأمرٍ يأمُرهم به ، ولابُدَّ من تفريط وعُدوان يقع منهم فى حقه ، فأُمِرَ بأن يأخذ من الحق الذى عليهم ما طَوَّعَتْ به أنفسُهم وسمحت به ، وسَهُلَ عليهم ، ولم يشُقَّ ، وهو العفو الذى لا يلحقهم ببذله ضررٌ ولا مشقة ، وأمر أن يأمرهم بالعرف ، وهو المعروف الذى تعرفُه العقولُ السليمة ، والفِطَرُ المستقيمة ، وتُقر بحسنه ونفعه ، وإذا أمر به يأمر بالمعروف أيضاً لا بالعنف والغلظة . وأمره أن يُقابِلَ جهلَ الجاهلين منهم بالإعراض عنه ، دون أن يُقابلَه بمثله ، فبذلك يكتفى شرهم .

وقال تعالى فى سورة المؤمنين : ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ● رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ● وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ● ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ● وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ● وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٣ — ٩٨] .

وقال تعالى فى سورة حم فصلت : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ● وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ● وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ

ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٤ — ٣٦] ،
فهذه سيرته مع أهل الأرض إنسهم ، وجهم ، مُؤمنهم ، وكافرهم .

تمت الرسالة ، وبالله التوفيق .

الكشاف العام

١ - الأعلام

٢ - البطــون والقبائـــل

٣ - الأماكن الجغرافية

٤ - الكتب الواردة في النص

٥ - الآيات القرآنية

مصادر ومراجع التحقيق

الأسانيد

١ - القرآن الكريم
٢ - سنن البيهقي
٣ - سنن الترمذي
٤ - سنن الدارقطني
٥ - سنن أبو داود
٦ - سنن ابن ماجه
٧ - صحيح البخاري
٨ - صحيح مسلم
٩ - المستدرك للحاكم
١٠ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث فنسنك
١١ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي

٢ - المصادر المطبوعة

١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير - دار الشعب - القاهرة ١٩٧٠ م - ١٩٧٤ م .

٢ - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني - تحقيق على محمد البجاوي - نهضة مصر - القاهرة ١٩٧٤م.

٣ - البداية والنهاية لابن كثير - القاهرة ١٣٤٨ هـ .

٤ - تاج التراجم لابن قطلوبغا - بغداد ١٩٦٢ م .

٥ – تاريخ بغداد   للخطيب البغدادي – الخانجي – القاهرة ١٣٤٩ هـ .

٦ – تبيين كذب المفترى   لابن عساكر – نشره القدسي – دمشق ١٩٢٧ م .

٧ – تذكرة الحفاظ   للذهبي – تصحيح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي – حيدر آباد الهند ١٣٧٤ هـ .

٨ – الجامع الصغير   للسيوطي – دار الكتب العربية الكبرى – القاهرة ١٣٣٠ هـ .

٩ – خلاصة تذهيب الكمال   للخزرجي – بيروت ١٩٨٠ م .

١٠ – شذرات الذهب   لابن العماد الحنبلي – نشره القدسي – القاهرة ١٣٥٠ هـ .

١١ – طبقات الحنابلة   لابن أبي يعلى – تحقيق حامد الفقي – القاهرة ١٩٥٢ م .

١٢ – طبقات ابن سعد   تحقيق الدكتور إحسان عباس – دار صادر – بيروت ١٩٦٨ م .

١٣ – طبقات الشيرازي   تحقيق الدكتور إحسان عباس – بيروت ١٩٧٨ م .

١٤ – طبقات العبادي   تحقيق غوستافيتسنام – ليدن ١٩٦٤ م .

١٥ – طبقات ابن هداية الله   تحقيق عادل نويهض – بيروت ١٩٧٨ م .

١٦ – الفهرست   لابن النديم – بيروت ١٩٧٥ م .

١٧ – اللباب في تهذيب الأنساب   لابن الأثير – نشره القدسي – القاهرة ١٣٥٧ هـ .

١٨ – لســـان المـــيزان	لابن حجر العسقلاني – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣١ هـ .
١٩ – المنتظـــــم	لابن الجوزي – حيدر آباد الدكن ١٣٥٧ هـ .
٢٠ – مـــيزان الاعتـــدال	للذهبي – تحقيق على محمد البجاوي – القاهرة ١٩٦٣ م .
٢١ – نكـــت الهميـــان	للصفدي -- تحقيق أحمد زكي – القاهرة ١٩١١ م .
٢٢ – الوافـــي بالوفيـــات	الصفدي – استانبول ١٩٣١ م .
٢٣ – وفيـــات الأعيـــان	لابن خِلكان – تحقيق إحسان عباس – بيروت ١٩٨٠ م .

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ١٤٠٠١/١٩٩١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 5215 — 03 — X

دار ماجـد للطباعة
ت : ٨٢١٢٣٨